

أسرار المسياسة

للاستاذ فكري أباطه



Publication of the Ministry of Education, 1974.

صحائف سوداء

في تاريخ الانجليز في بلادنا



من عهد عرابي باشا

إلى وقتنا هذا

الهيئة العامة للكتاب - القاهرة

رقم التسجيل	
رقم النشر	
رقم التوزيع	

التمن ه صاغ

الاهداء

اعترافاً بالجميل . وتقديراً للفضل . وإقراراً بالمعروف . نهدي هذا
الكتاب الى مصر المزيّنة . الى نيلها وسودانها وملحقاتها . الى الشهداء
والضحايا الذين تركب من عظامهم ترى هذا الوطن طبقات فوق طبقات :
طالبة إنصافها بانقاذها من رجس الأجنبي . وتطهيرها من دنس الغاصب .
الى المتقين الذين هم بحق الوطن يؤمنون . وعدوده وفاق الطغيان وسلطان
التاريخ هم يقيمون . وفي هذه السبيل بما رزقهم الله وبما يشتهون وقاية لهذا
الحق واحتفاظاً به مصوناً رايياً نامياً ينفقون . والذين يسلمون بما شرعه الامم
والقرون والمدائن والقرى المصلحون من عظا . وبالتجارب القومية هم
يوقنون . وبحساب ربهم ينفقون . وبالأخرة يصدقون .

وترحيباً وتكريماً . نهديه الى قوم عنوا عن أمر ربهم . وخانوا عهد
وطنهم . وقالوا في المال واستكبار . وفي غير استحياء ولا استعبار . إذا
بالذي آمنتم به كافرون . ولما أخذتمهم الرجفة . وأصبحوها في ديارهم جائعين .
وجاءتهم البينة . فكشفت ماران على قلوبهم . وأضحوا على ما فعلوا نادمين .
تابوا الى الله . وتابوا الى الوطن .

وهدي ورحمة وذكري . نهديه في النهاية الى الذين أشركوا بالوطن .
وزين لهم الشيطان قتل أمة آمنة مطمئنة عزلاء ليردوهم . والذين يحرفون الحق
من بعد مواضعه . عسى أن يزي الله قلوبهم . ويقهيم في الدنيا جزياً . وفي

الآخرة عذاباً عظيماً . « إن الذين اشترؤا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً .
ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم . إنما
نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين . ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم
عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن
الله يجتبي من رسله من يشاء . فآمنوا بالله ورسوله . وإن تؤمنوا وتمتقوا فلکم
أجر عظيم »

أحمد وفیق

تنبیه

وضعنا من هذه المذكرات حتى الآن ثلاثة آلاف صحيفة من القطع الكبير
ولقد كنا اعزمنا أن نصدورها في أجزاء كبيرة الحجم . ولكن إرتأينا
مراعاة الظروف الحاضرة ونمكننا للقراء من الاطلاع أن نذيعها أجزاء
عديدة في هذا الحجم الصغير



مناسبة الاصدار

ليس لي أن أنهر ذكرى معينة ، أو أتحين واقعة خاصة لاصدار كتابي « في سبيل الوطن » . مادام عنوانه قد انطوى على معنى الجهاد . وما دامت صفحاته أشعة وهاجة ترسلها شمس أشرقت في تاريخ مجد القوميات . وما دام الاحتلال البريطاني لا يزال في وادي النيل جائعاً .

إن كل يوم من أيام الاحتلال إنما هو لأصدار هذا الكتاب . ففي كل يوم ذكرى استشهاد . بل في كل يوم تستشهد مصر مع غروب الشمس لتبعث حياة مع شروقها . وإذا كان الانتحار الأدبي قد حل محل الاستشهاد اليومي في السنوات العشر الأخيرة . قضاء لأحط الأمانى . وتحقيقاً لأبغض المصالح في أيام المحن والكوارث العامة . فإن في هذا الانتحار الأدبي معنى الاستشهاد مادام فيه شق الطريق لتطهير يفضى إلى تعرف حقيقة الرجال الذين يستطيعون في النهاية وبمد الصبر الجليل على الأذى والنوازل أن يعملوا الانقاذ العام بتضحية مصالحهم وصحتهم وذواتهم وأموالهم والثرات . غير مستبشرين إلا بمعمة الوطن وممتهنهم بالتبعية للسمعة العامة .

فأصدار الكتاب هو إذن بمناسبة الاستشهاد اليومي العام في سبيل المصلحة القومية

ولما كانت هذه هي المناسبة . فقد حق علينا أن نحكي شهداءنا في شخص سيد الشهداء . وأمام الزعماء الاطهار « مصطفى كامل باشا » . قائد النهضة المصرية النزيهة التي لم تعرف تراجعاً عن المبدأ . ولا زكناً في العهد . ولا زكولاً عن اليقين . ولا ادياراً عن اليقين . ولا تسامحاً في عقيدة أو دين . ولا زعزعة في رأى . ولا توانى في هدى . شرع مجاهدة الانجليز فلم يلو آواء عن صراطه . ومن مناهضتهم فلم يحد عن خطه واشراطه . فلهذا ناصبهم العداوة

هذه نزل الميدان بتولى قيادة مجالدهم. حتى يهبط جسمه ساحة القبر. وصعد روحه إلى ديار الحق.

وفي هذا اليوم يخلق بنا أيضا أن نخفي من حول مصطفى هالة الشهداء. الذين أحاطوا بمبعث الإيمان الوطني أطارا انتظم لطيف سليم باشا. وعلى خرى بك. ومصطفى نجيب بك. وصهر لطفي بك. وحارس باشا. وحسن رضوان باشا. ومحمود نيس بك. وأسماعيل الشيبى بك. ومحمد فريد بك. وعبد اللطيف الصوفاني بك. ومحمد ~~الشيخ~~ بك. وأسماعيل حافظ وأحمد لطفي بك. ومنصور رفعت. وأعلى فهمي كامل بك. ومحمود ناشد بك وأمين الراقمي بك. وعبد العزيز جاويش بك وأحمد وجدى. وأسماعيل ليبى بك. وأحمد فؤاد وغيرهم من الجنود المجاهدين الذين تألقوا في سبيل التضحية ومموا انقاذا للوطن وحقوق الوطن. أن الوطنيين الأبرار ليدركون في كل يوم وهم يستشفون هذه الخيالات النورانية مدى تلك السماء الشاسعة الأغوار تغلغلتم مددها في أعماق الانسانية وأصطلح العالم على أن يسميها الروح الوطنية.

ففي كل يوم يرى المخلصون في كبد القبة الزرقاء نورا تركز ليرسل اليها إشعة قوية لا تقربها يد. وإنما تحسها. ولا يمسه جسد. ولكنه يشعر بها. ولا يدركها عقل. وأن مثلت أمانه. ويقهر دون تعريفها النقل. وأن تجسدت قدومه. ذلك أنها تنفذ إلى القاب مباشرة. لتخاطبه بلغة العاطفة. وتحاضره في طهجة الاحساس. أنها أشعة في الداخل ساطعة. وفي الخارج لامعة. يراها الوجدان دائما في ريعان الشباب. إلا تبلى ولا تتجدد. غصة الالهاب. ناعمة. خلا ملامسها من التجمد. إيساحة كائنات الاحباب. آيتها الانتشار والتمدد. تقبل دائما ولا تدبر. وإذا انكشفت فلتستجهم حتى تكرر. دون أن تتراجع أو تفر. أبدا متوثبة لاداء الواجب في دأب.

هذه آية «مصطفى كامل» والذين تتأوا حوله رصائع في محيط الشهداء. إنها معجزة هذا العصر الذي أمسى فيه للرذيلة جلال. وللنقيصة تقدير واجلال. إنها الطير في وكره. يفيض حنانا ورحمة وعطفا على الابناء المخلصين. والعصر في شجره. يتدفق حياة ونشاطا وثمره. للأوفياء المتقين. والمهل في أهداق البراكين. يغلي ويزجر. ليندفع وينصب على العاقين والشياطين. ويظهر الجور من أدراج الفاسقين. وينشر الغضب والبركة. بين البررة المهضومين. يخرج كما يخرج الحق من الظلام. ويمرق كما يمرق الظلام من الغضب. نهج حقيقة هذا الشماع ولكنك تراه نورا في كل مكان ومن السبب أن تحاول مسه في أي آن. فتحية إلى الشهداء في يوم ذكراهم المستمر. وسلاما على من كانوا ولا يزالون الشمس في حرارتها وقد جلسوا على عرشهم يطلون على صحراء الامام والمجاورين. يرقبون شئون امبراطوريتهم. ويتجلون من الافق على رعيتهم. والكل ينتمشون بنظرتهم. ويتزودون نسيجهم. ويستنشقون عوجات حفيقتهم. فاستمعوا يا سادة الاقوام. والمعوا وازدهوا فوق الآكام. فوادي النيل قصركم. وأهله حاشيتكم. وسماؤه وسادتكم. وأرضه تنبسط على أعينكم وتدور. لتسدلوا عليها من سلامكم بهجة الخضر والنور. وروعة النضرة. والسرور. وتسبلوا عليها ثوبا من جلال القوة والمقدرة. بينما الزمن يجري على مرأكم خاشعا. وإذا ما دنا منكم هرول راكعا. ضارعا أن تنتصفوا له من نفسه. وأن تؤاخذوه على جريرة تلبيسه ويأسه. وتقتصوا منه جريرة تردده. وإبلاسه. وخبثه.

الزمن ! إنه هذا الجيل الذين أطاعوا الغاوين. ولما برزت لهم الجحيم. ودنوا من حافتها ليكبكبوا فيها مع المبلسين. طمعوا في أن يغفر الوطني خطاياهم. وأن يالحقهم بالصالحين. وأن يجعل لهم لسان صدق في الآخريين.

وما نزلت الجنة إلا للمتقين الذين يقولون بأسمائهم ما في قلوبهم .
 الزمن ١ : إنه هذا الجيل الذي يسمى إلى الشهادة ويخفد . وإذا ما تلقى
 عليهم ألقى الدروس عاداً دراجه وفي السير جند . فرما لا يلوى على شيء . هلوماً
 ومن خلفه جلال الجبهة الهادئة الساكنة يضيء له الدياجير . ويكشف له
 مصباحه عن المصير . في مقدرة لاتباعها بين الانسانية مقدرة . ذكرها
 نهار . وغياها ليل .

فيامصدر أنوار القلوب ! لقد فسدت النفوس . وتخلت الاخلاق . وأصبح
 يطعم في النفاس . من عاف الطين والذهب بالامس : وأمسى في مهر شبان
 وشيوخ ورجال ونساء يحتضنون الجريمة . ويتخذونها رأس مال بحاربون به
 الامة في كرامتها وشرفها ومهمتها . عدل لقمة يتبلغونها . وقابل حصاد
 يتمتعون في قذارته . فنزلوا بالاخلاق إلى أحط دركات الفساد المؤدية بالفرد
 والجماعة إلى جعل عنصر الاجرام مقومات الحياة ودعائم الشرف وتكاآت
 الكرامة . وخطوطا صالحة لتكوين اسجة الضمير واصطناع الياف القدمة .
 وكل ذلك راجع إلى الاستهانة بحق الامة . وجعله موضع مساومة على
 المناصب والوظائف والحكم ووقف المنافسة على ما يرى اليه هؤلاء الذين يغضبون
 للمناصب . ويخفدون على الوطن ويخنفون « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
 قالوا أنؤمن بما آمن السفهاء . ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا
 لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن
 مستهزون الله يستهزي بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين
 اشتروا الضلالة بالهدى فازبحمت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي
 استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون
 سم بهم سمى فهم لا يرجعون »

يا مصدر أنوار القلوب ! لقد انصرف غالبية الأمة عن صراطكم السوى
وخرجوا على مبادئكم. وجروا مصر إلى الفحش في الوطنية. وإرثاء رث
الاثواب القومية. وامتنان الكرامة العامة. ولقد ذكرنا هذا الموقف بموقف
« كورديليا » في رواية الملك « لير » فبعد أن غدر بها هذا الملك. وانزع
منها حبه. وسلبها نعمه. وحرمت طبيبات الحظ هجرها خطيبها الدوق ده
« بورجونيا » ولكن ملك فرنسا خافاً قائلاً : « أن يؤسك يا كورديليا الحسنة
قد جعلني أراك أغني منك في أي وقت مضى. وعزلتك قد رفعت من
قدرك. ومأساتك قد ضاعفت حبي إياك. فيما أنهم هجروك والقوك فوق
للثرى فاصحني لي بأن أرفعك في إحترام متأجج. ولنكوني ملكتي وملكيتنا
ومملكة رطايانا ومملكة فرنسا الجميلة »

لقد أحب الحزب الوطني « كورديليا ». أحب مصر المغلوبة المنكودة المنكوبة
المضطهدة عندما هجرها أبناؤها. وطلتها زعمائها. وخان عهدها قادتها. فمقد
عياها بدافع شقوتها. والعمل على راحتها وطباً نيتها. وفي سبيل انقاذها
احتقر مظاهر الزواج الغنى. وازدري بالمناصب. واشماز من الطين والعقار.
وظفق بزمها بأجل أناسيد التشجيع. ويسلمها بأعذب تراجم الحنان والعطف
المتدفق أمن أعماق قلبه القوى قوة قلوب الفرسان في هجماتهم. الرحيم رحمة
قلوب أحن الوالدات على فلذات أ كبادهن.

ولكن سوء الحظ قد انقض على رجال الحزب الوطني فانهمكهم واضطهدهم
وشردهم. فما كان من « كورديليا » إلا أن وجدت سريراً للشقاء والآلام مريراً
قاسياً فقالت للحزب الوطني : « تألم وحدك ولا ذهبن إلى حيث الذهب الوفير
والفراش الوثير. حيث يملو جيبني رياحين النصر وأ كاليل الظفر والفخر »
ولكن لثرت لحاها. ولنغفر لها ولا نلن الايام التي همتا فيها بحبها ساعة إذ

تجملات بدموعها . ولنصفح عنها . فقد أضلت فضلت . وخدمت فالتخدمت
وضاعت ثقتها . وآن لها أن تندم على ماقات . وتندبر ماهوآت . ولا زلنا على
موعدها في سبيل خدمتها وخدمة الانسانية الجريحة الدامية . ولتعلن مصر أن
الحزب الوطني « كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغاث فاستوى على سوقه يعجب
الزرع ليعظيهم السكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مقفرة
وأجرأ عظيما »

يا مصدر أنوار القلوب ! دمت ودامت أنوار ايمانكم تنساب أمطارا
ذهبية تطل فتتحال خيوطها على أجنحة الهواء . فاذا بها ألوان فصول السنة
اكتستها الغبراء . لتجعل أنصاركم أقوياء مننجين . وجوهرهم نضرة . لا تزهقهم
فترة . كالاشجار كستها الطبيعة أثوابها الخضراء . وأولتها ثمارها الفيحاء .
يا مصدر أنوار القلوب ! إقذفوا باشمتمكم على الذين ناصبوا مبادئكم العداء
انتصارا لمصالحهم الخاصة . أقذفوها حولهم من كل مكان حتى تكون « دشا »
ساخناً يظهر الادران . ولتخلعن عليهم جاذبية تقتاد اليهم المبادئ الصادقة
كتلك الجاذبية التي تخلعها السماء على الرياحين والورود . ترقا من الازياء
والالوان . حتى تنساب المبادئ اليهم فتلبسهم . فلا يتجشمون نصبا . وتغرو
نفسها بهم فلا يتكبدون في اعتناقها نعبا .

يا أيها الارواح الكريمة ! تناولي ريشة الفن . وصوري لهؤلاء الذين
زهدوا في الحق . وطعموا في الباطل . صوري لهم وفان مقتضيات الحال . وما
أصبحت عليه حاجة السادة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشاوة ولهم عذاب عظيم » . صوري لهم خلعة سنية . وحلى بالذهب والفضة أجسادا
تعشق الذهب والفضة . ولوحى لهم بلوحات براقة أخاذة من أخف المعادن
وأغلاها لمن يعبد أخف المعادن وأغلاها . وأسبغى ثوبا من البرد الذي يريدون

أن يكونوا فرقة بيضاء - أو كوكباً في عين دعاء . واسبلى معطفاً من رداء على الدين .
 يرغبون في أن يكونوا وردة حمراء . وجلى كبار المطامع كما جات القدرة
 للطاوس . بأبدع ما صنم الباري من جماع الألوان . ليختاروا اختيار العروس .
 يسحب برشاقتها الفنان . وانفجى الاطالم ثوبا من خيوط الفجر . يباهون به
 السكواعب الحسان . واحتفظي لنا بزرقة السماء علما . نتمتع يوماً تنبتة
 اثرقة من صحو ينعكس ضياؤه على سطح البحر الهادي فتتمثل أمامنا طبيعة
 القلب . والا فافرغى ضياءك على القلوبك ينعشها . ويسلك الحماسة فيها ويحييها
 ويملن للوجود . معنى الخلود . « وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة
 والعشي يريدون وجهه . ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع
 من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وقل الحق من ربكم
 فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها
 وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفعها »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لمحت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم . وما يضرونك من شيء . » وانزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » وصلاة وسلاماً على من أنزل عليه « فلما انجأهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق . يابها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينامرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون . إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والالعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزبفت . وظن أهلها أنهم قادرون عليها إذاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » « محمد » صلى الله عليه وسلم . سيد المرسلين . وخاتم النبيين . وأمام المجاهدين . أقام صراط الخلود على أن « من في الدنيا ضيف . وما في اليد طارية . والضيف سرحل . والعارية مؤداة » ومن قاعدة المجد على أساس حديثه الشريف : « أحذروا الدنيا وحلاوة رضاعها لمراة فطامها » . ووضوا أن الله على صحابته والزاهدين في حطام الدنيا « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله . والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم » أما بعد فهذه « فاتحه » كتابي « في سبيل الوطن » وهو كتاب أخرجه للناس هدي ورحمة . في عدة اسفار جمعت منذ كراتي ولا سيما ما دوتته منها خلال حياتي السياسية التي بدأت في سنة ١٩٠٦ . واني

لأنفسهم هذه المذكرات تلبية لنداء الدين كرتهم المحنة الحاضرة . وأجابه للخلق
الوطني القويم ناشدني الاستمرار في جهادي بعد أن أوصدت أمامي سبل النشر
الأخرى . والفكرة القويمة لها أثرها سواء أكانت أذاعتها بالصحف أم المجلات أم
المنشورات أم الكتب مادامت التربة صالحة لنباتها . والجو ملائماً لتمرير
نبتها . والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب مصححة للاستشفاء يجد فيها المصاب
بالسل الوطني غذاء يساعده على المتابعة . ويعثر فيها المريض بالاضطراب
الذهني على دواء يشفيه من مرض التقيء العقلي والمغص الخي ويتفقد فيها المتعب
ضالته من الراحة ليسترد بها الاتزان الفكري

سبب الإصدار

إن اسم كتابي « في سبيل الوطن » صريح في الدلالة على سبب وضعه
والغاية منه . فالسبب واحد . والغاية واحدة . كلاهما لا يتجزأ . ولا ينقص ولا
يزاد عليه .

إن السبب هو الاحتلال . والغاية إجلاء الاحتلال . بتدعيم الخلق القومي
وانعاش الشعور الوطني والحرص على إطراد هذا البناء
للإنجليز خطة مرسومة نحو مصر . ولقد طفقوا يحاولون تنفيذها منذ
سنة ١٧٧٥ وفي كل دفعة كانوا يفشلون فيها يعمدون العمل لإنجاحها كرة
أخرى . وفي شكل آخر . ولكن جوهرها هو هو . واحد لا يتغير ولا يتبدل
وهو ضم مصر إلى إنجلترا بإرادة مصر وإقرارها .

ولقد اعتادت إنجلترا في كل جيل أو ما يقرب من جيل — مع احتمال الزيادة
والنقص — أن تقطع مرحلة من هذه الخطة . فان ركزت أقدامها عندها
وثبتت بدأت مرحلة أخرى بعد إنقضاء هذه المدة . وعلة انقضاء الثلاث

والثلاثين سنة واضحة هي العمل على طبع الجبل القادم بطابع خاص .
 ففي سنة ١٧٧٥ ، أبرمت إنجلترا مع أبي الذهب معاهدة خاصة بمصر
 السويس ورسو السفن الإنجليزية هناك . ولما كان نهر السويس أو برزخ السويس
 أو قناة السويس هي مصر . بل وادي النيل والاماكن المقدسة . فان خليفة
 المسلمين أصدر في ذلك الحين فرماناً يقضى ببطلان هذه الاتفاقية . فخضعت
 إنجلترا وقتئذ لقوة السلطان وشوكته . ولكنهم لم تقلم عن غاياتها . ولم
 تستأصل جرثومة الطمع في مصر من اعماقها . بل تحبذت الفرصة وتربصت بمصر
 الدوائر حتى تقتنصها . فاذا ما وقعت بين أيديها لا تفلتها .

ففي سنة ١٨٠٧ — ولا يمكن سياسياً أن تكون مطاردة بونا برت في مصر
 تنفيذاً لخطة احتلال مصر — أنزلت إنجلترا جنودها في الاسكندرية بعد أن
 أطلقت مدافعها على الابراج فهدمتها . وأبرمت معاهدة حماية مع حاكمها .
 كما أنها كانت قد عقدت مثل هذه المعاهدة مع البرديسي حتى يتم لها خضوع
 مصر . ولكن الشعب المصري أكره الانجليز بعد معارك رشيد وغيرهما من
 المعارك التي وقعت في البحيرة على الفرار حتى ركبوا البحر وفي طيات أعلاهم
 آيات الخزي والعار . ولقد أبرموا في ذلك الحين معاهدة مع وزيراً خارجية
 مصر ولكنهم مع ذلك لم ينتزعوا من نفوسهم الغل الذي أنبته غلب المصريين
 وانتصارهم عليهم . وجعلت الفرحة تنز كلماً إذكروا الطعنات التي نالت على
 أقيمتهم بين رشيد والاسكندرية . ولذلك رأيتهم يشتركون مع روسيا
 وفرنسا في تدمير الاسطول المصري غيلة وخيانة في معركة ناورين في عشرين
 أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ثم قاوموا محمد علي فيما بعد بمناسبة معاهدة كوتاهية

سنة ١٨٣٣

وفي سنة ١٨٤١ أتمت إنجلترا شطراً كبيراً من مهمتها . إذ أضعفت مصر

إضعافاً كبيراً بمعااهدة لندن وما تلاها من فرمانات . ولما توفي إبراهيم ومن بعده محمد علي . هدمت مجدهذين البطلين بيد عباس الاول . ثم حصلت على امتياز سكة حديدية بين الاسكندرية والسويس وقاومت فكرة حفر قناة السويس . ثم سلبت من قيصر روسيا في سنة ١٨٥٣ . ومن نابليون الثالث سنة ١٨٥٧ تصريحا بالاستيلاء على مصر . وفي سنة ١٨٦٦ أعدت حملة لغزو مصر ولكنها عادت أدراجها وهي في منتصف الطريق بمناسبة الهدنة التي عقدت بين ألمانيا والنمسا . ثم حالت دون إعلان استقلال مصر في سنة ١٨٦٩ وفي سنة ١٨٧٢ وفي سنة ١٨٧٥ بطشت إنجلترا بمصر البطشة الادبية الكبرى . إذا أوفدت المستر كيف لمراجعة حسابات المالية المصرية . واشتركت في صندوق الدين . وفي نوفمبر من تلك السنة أتمت الصفقة الخاصة بشراء أسهم الحكومة المصرية في شركة قناة السويس فتم لها الفتح الادبي . وتلا ذلك العمل لتثبيت هذا النفوذ وتحويله إلى نفوذ مادي . ثم جاء جوشن في مهمته . وقرر مؤتمر برلين في جلسة مصرية بإعلان بسمرك الموافقة على المراقبة الثنائية قصداً إلى قيام الخلاف بين إنجلترا وفرنسا في مصر كما قام بين ألمانيا والنمسا في شلسويج هولشتين . وأعقب ذلك نزول الطامة الكبرى . إذا احتلت إنجلترا مصر في سنة ١٨٨٢ فاستحال النفوذ الادبي إلى نفوذ مادي حيث أمكنها رغم ان اتفاقية الاستانة أن تحاول املاء ارادتها على الدول فيما له مساس بمصر أو بموقف الاحتلال البريطاني فيها . وجعلت من مفاوضاتها مع الدول قصداً إلى الجلاء عن وادي النيل كما جعلت منها مع احزابنا الحكومية خرسوفة تنتزع منها ورقة أو عدة ورقات في كل دفعة . وناهيك بذلك التحفظ الذي حلقت عليه نفاذ معاهدة سنة ١٨٨٨ وهو الخاص بعدم التعرض لجيش الاحتلال في مصر . ثم اشترط عودتها إذا اختل الامن في مصر بمسد جلائها عنها . وهو الشرط الذي اخفقت من أجله اتفاقية دروموندولف . أضف

إلى ذلك كله تصرفها في الأراضي المصرية بعد أن أرغمتنا على ترك السودان .
اقتطعت من جسم مصر أجزاء شامسة . أجرت بعضها وتنازلت عن الباقي
الآخر مع تعليق رده إلى مصر على شرط أن تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها
استمادت السودان بانه والناو دما ثنا وجعلته شركة بيننا وبينها على أن يكون على
الغرم فيها ولا إنجلترا القم منها . ولقد كانت المعاهدة الخاصة بتسوية
السفلى (السودان) بين إنجلترا وفرنسا هي إبدأ تصفية الحساب بين
الدولتين .

وفي سنة ١٩٠٤ تمت تصفية الحساب . وأمضت فرنسا وإنجلترا الـ
الودى . فأنطلقت يد إنجلترا في مصر رغم أن أن وضع القضية الـ
لم يتغير .

اكتسبت إنجلترا في مصر هذا المركز . ولكنه لم يرض كل مطام
فاعتزمت أن تعمل على توطيد أقدامها وترسيخ أساس استعمارها .
إذا ما جاء أجل الاتفاق الودى في سنة ١٩٣٠ استنطاعت أن تواجه الدول
واقم . ولكن الحوادث والخطوط سبقتها إلى تحقيق غايتها . وخيانة الظن
والسياسة شددت أزرها . فقد وقعت الحرب في سنة ١٩١٤ . وحسرت
اللائم من حمايتها المقنعة وجاءت بحماية صريحة فيل وقتئذ أنها لضرر
حربية . وهي حماية لم ترفع حتى الآن فعلا وأن تبجح البعض في القول
رفعت . وأن إنجلترا كفت أيديها عن التدخل . إذ القانون الدولى
وجود الحماية نظريا . والتدخل السرى يؤيد وجودها العملى فعليا . وهذا
دليل أقطع على وجودها من أننا لا نعمل صملا إلا إذا راق إنجلترا ؟

وها هو جيل جديد يطل علينا . فإذا اعددنا لمقاومة ما عسى أن تقا
به إنجلترا في مستقبل الجبل القادم ؟ لمن المحتمل أن تقا جئنا بما يصرف
عن غارتنا كتمسير حملة لا اكتساح الحبشة مثلا تحقيقا لمشروع غلادستون
كما أنه من المحتمل أن يفاجأ العالم بكارثة حرب عالمية جديدة . فهل نحور

قوة تقاوم بها الاحتمال الاول . أو على اجماع يمكننا من انتهاز فرصة الاحتمال الثاني لا نتزعج استقلالنا وتدعيمه ؟ ليس الامر بداع إلى التردد والحيرة أو التشكك . فالوقف واضح . والاستعداد جبلي . ولا جواب إلا أننا اليوم نعاجزون عن القيام بأي حركة كريمة شريفة . فما هو السبب ؟

محنة اليوم

إننا اليوم في محنة ، وهي محنة نفسية خلقية عقلية عصبية عامة . ولقد تنبأ الحزب الوطني بها منذ الناشئة الاولى لتكوين الوفد .

أبان الحزب الوطني حقيقة المصير القدي أننا اليه اليوم ساحة إذ قابل سعد السير ونجحت في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وتنازل له عن مصر مقابل تنظيم للحماية على قاعدة منح بعض امتيازات داخلية للامة المصرية . وأبانه ساعة إذ خطب سعد في الجمعية الجغرافية ، وساعة إذ أصدر الوجهاء ومن في حكمهم منشورهم الذي سجلوا فيه على مصر مسئولية الثورة عند ماعين الفيصل مارشال النبي حاكماً مطلقاً على مصر والسودان في مارس سنة ١٩١٩ . وأبانه بمناسبة المفاوضات مع ملنر وفي كل مناسبة أخرى سواء بمنشوراته أم خطبه أم كتبه أم تقاريره أم صحيفة اللواء المصري والاعخبار أم باقلام كتابه ورجاله في كل عهد من عهود الثورات الحزبية . وكذلك أبانه نوابه من فوق منبر البرلمان .

ولقد علل الحزب الوطني هذا التنبؤ أو التوسم بضعف الزمامة ضعفاً سياسياً خلقياً عقلياً عصبياً . وعجزها عجزاً مطلقاً عن فهم الآثار المترتبة على قانون التوارث المصري العام . حتى انتقلت العدوى من الزمامة الى الامة . فأصبحت

مترددة حائرة متشككة لا تستطيع حكماً ولا استقراراً . لأن الرأمة تسلط عقل نسبي على أنصاف عقول أو على لا عقول أو على عقول . وأنصاف عقول لا تفهم أنها في هذا المستوى . ومتى انتقاد كل ذلك الى الضعيف العاجز سياسة وخلقاً وعقلاً وعصباً . انطبم بهذا الطابع وتخلق بهذا الخلق وقاده ذاك العقل وحكمه هذا العصب في ظروف ومناسبات خاصة إن لم يكن على التوالي .

واليوم نرى المريض الذي كان بالأمس موضع علاجنا يتخيل أن الأمان أصل الداء . والحكمة في ذلك اشتداد المرض عليه . والمريض هنا ليس حزباً حكومياً خاصاً وإنما جميع الأحزاب المستوزرة . لأننا لا نزال نعتبر الوفد وحدة قائمة لم تتصدع في أي وقت . ولم تنشقق لاي شهوة أو مصلحة . لأن شهوة الجميع واحدة . ومصلحتهم واحدة . هي إذلال النفس مقابل مناصب الحكم . وإذا كان هناك خلاف بين الأحزاب قائماً في الوسيلة المؤدية الى استبقاء الحكم . فالبعض يركن في ذلك الى الاعتماد على الدهاء وهم رجال الوفد . والبعض الآخر يعتمد على التشريع وهم الاحرار الدستوريون والاتحاديون والشعبيون وفي الحق أن سمد زغلول لم يمت ولا يزال يجمع بين الأحزاب المستوزرة . لأن الوفد لم يتحول عن سياسته . والاحرار الدستوريين الذين خرجوا أول من خرجوا على الوفد يطبقون فكرته وأن تصوروا أنهم هيئة قائمة بذاتها . والاتحاديين الذين تكامل عقدهم من انفرطوا . من هنا وهناك . ينفذون خطة الوفد . والشعبيين الذين تجمعوا من قاتم تحقيق المصلحة الخاصة أو بعضها أيام انتسابهم للأحزاب الأخرى يرسون بما رجعهم سعد ورشدي وعدلى وسعيد ويوسف وهبه ويحيى ابراهيم وتوفيق نسيم وزبور وروت ومحمد محمود والنحاس . ولذلك فلا يجوز أن يتراشق هؤلاء الأحزاب المستوزرة بتهمة الاعتماد على الانجليز ولا أن يعير هذا ذاك إذا هو حرص على مصلحته الخاصة مادامت سياسة

الجميع واحدة هي القناعة بفئات الموائد البريطانية والزهد فيما لا أرضاه انجلترا .
 وإذا كان المقام لا يتسع لكل ما أوردته المصحف الوفدية والحرية
 الدستورية والائحادية والشعبية والمحايدة من آراء خاصة بقانون التوارث
 لقوى . إلا أننا نورد جملة ثالثها السياسة بعددها الصادر بتاريخ ٣١
 يناير سنة ١٩٣٤ بمناسبة حادث تبشير اهتمت له المصحف جميعا في هذه الاونة .
 ولو أنه وقع في عهد كانت الظروف السياسية مما يراه القادة المستورزون يتطلب
 التسامح في العقائد الدينية لما سمعت غير صوت الحزب الوطني يتردد في جوانب مصر
 قالت السياسة بعد كلام طويل

«ولو أننا استطعنا أن نوجه نفوسنا نشئتنا في المدارس والكلبات والمعاهد
 غير هذه الوجهة الدنيا وخلقنا في نفوسهم الايمان بالحق وجدوة المثل الأعلى
 لمقدسه لانشأنا في جسم هذه الامة روحا قويا بدل هذا الروح الخامل الخامد
 الذي ما أضعف اليوم ما ينبض . ولكننا مقيدون بماض ثقيل ونفوس ضعيفة
 بوضع سياسي يستعدي الضعفاء على الافوياء والمتهمدة أرواحهم ونفوسهم
 على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيماننا . فحسبنا الله في أولئك جميعا نعم الوكيل»

هذا وأشد من هذا قد قيل بمناسبة تنصير فرد . لأن الوفد والاحرار
 الدستوريين خارج الحكم . ولو أني لأعدل أثارة في نفوس هؤلاء الكتاب .
 ولو أن العقل المتزن الصحيح هو الذي أملي حقا هذا الدفاع على هذه الاقلام
 لكان من الواجب على هؤلاء الكتاب جميعا أن يناصروا الحزب الوطني في
 مواقفهم رد حملة التبشير العامة التي قامت بها انجلترا في سبيل تنصير أمه على
 بكرة ايها البازع الايمان من قلوب المصريين جميعا عندما اتخذت من الاحزاب
 المصرية المستورزة ابواقا للتبشير بمشروعات ملنروكرزن وتشمبرلن وهندرسن .

وتنفيذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢ . حتى تقضى على السنة للشريفه القائلة
 « حب الوطن من الإيمان » لتحل وثنية جديدة محل هذا الإيمان الذي
 لأقوام لامة دونوهي عبادة إنجلترا من دون الله استدراارا للخيرات . وقضاء
 الثباتات . وتحقيقا للمصالح الخاصة . ولحق على هؤلاء الكتاب أن ينادوا
 كما نادى الحزب الوطني بمقاومة سياسة النفاهم التي قضت على آمال أمة وأنزلت
 بها المحنة الحاضرة التي جعلت صحيفة الجهاد تصبح صحيفة الحق في عددها الرقم ٢٣
 ر فبراير سنة ١٩٣١ تحت عنوان « السياسة البريطانية عدو مصر اللدود » حيث جهرت
 بقولها « صحنا صبيحتنا في هذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقبة
 المرة التي طالما حبسناها في صدرنا مراعاة لما يسميه بعض الناس (مقتضيات
 السياسة وترقب الظروف)

« ولكن حبيل للمصايرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول . وحتى
 أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية ووضعها
 الصحيح . . . »

وقالت البلاغ في عددها الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « وعيناً
 ةتوارى إنجلترا خلف تصريح ٢٨ فبراير . فباسم هذا التصريح قد تدخلت
 صراحة وجهراً ضد البرلمان المصري ؛ وهو ينظر في قانون من أخص شئون
 مصر الداخلية . وباسمه تدخلت وتدخل كلما رأت في التدخل مصلحة حاضرة
 أو متوقعة . . . »

وقالت البلاغ في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « ان
 مطامع إنجلترا في مصر لا تقف عند حد درس تلقاه هذا الجيل عملياً وشاهدناه
 بأعيننا . ومن كان في شك فليرجع إلى تاريخ إنجلترا مع مصر في تمويضات
 الموظفين ... فالنفوذ البريطاني والجيش البريطاني قائمان في هذا البلد لمصلحة

المجترات . وخدمة الشعب البريطاني . والتجارة البريطانية . وهذا الوفد
المسوس المحسوس يتدخل كلما طاب له التدخل . ويبرز كلما اقتضت مصالحته
أن يبرز . ولن يعجز السياسة البريطانية انهازالفرنس واختيار المناصب . الخ »
فالجهاد تعترف بجرعة الوفد . انها تعترف بأن الوفد أفسد على مصر جهادها
وأذهلها عن قضيتها الكبرى . وأخرج هذه القضية عن وضعها الطبيعي
الصحيح .

والبلاغ تسجل جنایات الوفد وتشير إلى الحل السعيد وتدخل إنجلترا في قانون
المظاهرات والاجتماعات وهو من أخص شئون مصر وأحمّل على رضا النحاس باشا
بالإنصاف إلى إرادة إنجلترا . ثم هي تشير إلى التنفيذ شيء والاستنكار شيء
عند ما تلقى على نائق سعد تهمة الخيانة بالنسبة لتمويضات الموظفين
ان هذه الآراء هي ما كان من الواجب أن تسود العقول والنفوس المصرية
قبل المفاوضات وتسميم العقول بقبولها قبول العاجز عن كل شيء والتدهور
إلى أخط درك من حضيض الضعف ومهانة النفس

هذه الآراء هي ما كان من الواجب أن يتشبع بها المصريون في
الأكواخ والحقول . في الحدائق والقصور . في المصالح والدور . في الخلاء
والعراء . في السهل والجبل والبيداء حتى لا يفقدوا قوتهم المعنوية التي ضاعتها
جرعة سياسة حسن النقام واعتبار الأنجليز نهبوا ما شرفاء معقولين خلال نيف
وعشر سنوات . وهذا ما عبرت عنه الجهاد بقولها « نحن أصبحنا في هذا
المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقبة المرة التي طالما حبسناها في
صدورنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات الظروف) — سياسة
حسن النقام — لكن حبس هذه المصاهرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول

وحتى افسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية ووضعا الصحيح . . . »

ولقد قالت السياسة ضمن ما نقلناه عنها أننا : « إننا مقيدون بماض ثقيل ونفوس ضعيفة ووضع سياسي يستعدي الضعفاء على الاقوياء . والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيمانا بحسبنا الله في أولئك جميعا . ونعم الوكيل »

وهذه كلمة حق مرقت من فم السياسة وان هي انطبقت فعلى وصف رجال السوء الذين حبسوا الحقيقة المرة في صدورهم « مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسية وترقب بالظروف) وطال حبل مصابرتهم حتى تجاوز طوله كل معقول . » وحتى افسد علينا جهادنا وإذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح . . . » وكذلك تنصب كلمة السياسة على من قال فيهم البلاغ ما اقتبسناه عن مقالها الافتتاحيين الصادرين بتاريخ « ٢٢ و ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ » وما عنت البلاغ غير سعد ولا نحاس

ولكننا لا نجاري السياسة فيما أوردته بالنسبة للوفد ولا نجاري البلاغ والجهاد في حملتهما المنكرة على الوفد . بل لابد من أن ندع هذه الأقوال جانبا وأن نؤيد الرأي بالحجة البالغة . فمن هؤلاء الضعفاء والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم ؟ ومن الاقوياء الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيمانا ؟ وما هو هذا الماضي الثقيل الذي قيدنا ؟ وما هي حقيقة والآثار المترتبة عليه ؟ وهل هذه السببة التي دمع بها الوفديون والاحرار الدستوريون وجه الامة صحيحة ؟

أن الرد على هذه الاسئلة يتطلب حتما أن نحلل زعامة سعد حتى نزن كفايتها ونعرف قدر مواهبها . وهذا يدعو إلى تحايل سعد من نواحي قوانين الوراثة والملايسة والوسط وبحث أتران عقله وعصبه وحواسه وذاكرته . الامر الذي

يتطلب تفصيلاً ضافياً وافياً عن معنى التشكك بأنواعه الطبيعية والعلمية والفلسفية. وموضوعه وأسبابه ودوافع نمائه ونتائجه وعلاجه بحيث لا نتناول تمحيص سمه الاتناولا علميا حتى اذا ما اردنا ان نكان رد علميا بحثاً فاذا ما وصلنا الى تكوين فكرة صحيحة عن زعامته انتقلنا الى بحث الامة أيضاً من ناحية قانون الوراثة وناحية قانون الوسط والتطور والرق والتدهور حتى نعرف أن هذه الامة من عنصر كريم نبيل مقدم يستطع جوهره السامى اذا رفع الزعيم ماعلاه من صدأ الزمن وحافظ على هذا السطوع باضرام نار الحمية والغيرة فى الصدور باستمرار ودأب. ونوفق أنها دائماً فى انتظار هذا الزعيم لشد أزره فى جرأة لا تعرف تراجعاً ولا تقهقراً ولا تدهوراً إلا اذا تراجع الزعيم وتقهقر وتدهور. وهذا يدعو الى القاء نظرة على ماضى الامة البعيد والقريب سواء من الناحية الداخلية أم الخارجية. ما وقع من قاذنها أو من الجاليات الاجنبية. أو من سياسة الدول على عمر السنين ولا سيما منذ الحملة الفرنسية حتى مؤتمر بولن ومؤتمر الاسناتنة فى سنة ١٨٨٢ وأيام مصطفى كامل باشا.

فاذا نحن درسنا الامة على حدة وحكمنا عليها دون أن ندرس تيار الفكرة الدولية والسياسات العالمية وحركات الشعوب وتربية الزعماء فى نشأهم وعصرهم ومدى خيالهم كان حكمنا على الامة باطلاً ولغوياً. نعم أننا إذا لم ندرس مصر على ضوء القرن التاسع عشر وقد حفل بالاقتلابات الشعبية التى تربى فى وسطها بعض ولاية مصر وحكام مصر وزعماء مصر وما دوا اليها ليمشوا وسط الزمازج وتيارات المطامع الاستعمارية المتعارضة التى كانت تؤدى إلى مطاحنات دوت فى بعضها المدافع وكادت تدوى فى البعض الاخر وإذا لم نلاحظ فى هذا الدرس موقف مصر العلمى والادبى والخلقى فان هذا الحكم يكون كذلك الذى يصدره مؤرخ عقيم على نابليون الاول إذا هو لم يعتمد بالثورة الفرنسية الكبرى. بل كانت

مهمة هذا المؤرخ هي دفن الامة المصرية . وهي مهمة شأنها شأن مهمة موسيقى روميو وجولييت الذين دعوا للعزف في ليلة الزفاف ولكنهم ما وصلوا إلى مكان الحفلة حتى أدوا مهمة تشييع الجنازة وعزفوا الاناشيد المحزنة المنفجعة .

فاذا نحن وصلنا إلى الحكم على الامة حكماً مدعماً بالاعتبارات السابقة واستخلصنا الصفات التي ينحتم أن تتوافر في الزعيم الذي يجب أن يباشر به قيادة الامة المصرية فقد حق علينا أن نقيس هذه الصفات بصفات سمعدها نعرف هل كان رجل الساعة أم لا ؟ وهل كانت الامة عاجزة فاعجزته . أم هو الذي كان عاجزاً فاعجزها عن العمل لاستقلالها وأقدمها عن استرداد حريتها ؟ على أنه إذا كان قانون الوراثة قديم وقانون الوسط أقدم حيث يرجع ذلك إلى عهد الاغريق الاقدمين كما يستدل على ذلك من قصائد « بندار » وكما يستدل على ذلك أيضاً من الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ومن الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخال » فاننا لا نرجع إلى هذين القانونين إلا من الناحية العلمية الاصلية التي ذاعت في القرون الاخيرة

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »



قانون الوراثة

وأثره في سعد زغلول

ليس في طوق المؤرخ أن يحكم على رجل من رجال التاريخ إذا فاته الاعتماد على قانون التوارث بشقيه . الخاص والعام . وتأثير قانون البيئة . وأثر التشكك في القوة المدركة والمصبية . أو إذا هو أهمل الرجوع إلى هذه القوانين وهو يستخلص من الوقائع صورة رجل التاريخ . وسعد هو هذا الرجل سواء أحسن أم أساء إلى وطنه . لذلك نرى من الواجب . أن نبسط كل بصدد هذه القوانين وأحوال التشكك وأن نطبقها على سعد زغلول والامة المصرية حتى إذا ما انتهينا إلى صورة صحيحة من سعد بروحه وفكرته وعقله وعصبه . وإلى أخرى من الامة المصرية . بحياتها وخلقتها وموقفها الاجتماعي استطرذا إلى بيان أعماله . وروايتها وما حاط بها من مؤثرات تحقق معها غرضه أو أخفق .

تعر يف قانون الوراثة

التوارث قانون « بيولوجي » يقضى على الالة بان تكون تكراراً للكائنات الحية التي انحدرت منها . فهو للنوع بمثابة الشخصية للفرد . فبالتوارث يعيش في أعماقنا جوهر لا يتأثر ولا يتغير مهما تعددت التقلبات . وبه تستمر الطبيعة في اتواله لاخراج ذاتها . وتقليد نفسها على توالي الأزمان .

هذان الناحية الجسمانية . أما من الناحية الروحية . فينحصر التوارث في أن يفتح الأصل شبيهاً به . إلا أن هذا الرأي نظري إلى حد ما . لأن أحداث

الحياة ليست خاضعة لنظام حسابي دقيق . إذ تزداد صور هذه الاحداث تعميداً كلما انتقلت بها من عالم الحياة النباتية إلى الحيوانية فالانسانية .
ومهما كانت صعوبة تقدير التشابه فإن تقدير الانسان يرجع إلى ناحيتين :
ناحية التكوين . وناحية المحرك . أى جهة انوظائف المترتب عليها حياة
الانسان الجسدية . وجهة الاعمال التى تتألف منها حياته الفكرية .
فهل هاتان الصورتان اللتان تتشكل فيهما الحياة الانسانية خاضعتان لقانون
التوارث ؟ وإذا كان فالى أى حد ؟

لقد درس العلماء هذا الموضوع من الناحية الجسدية درساً عميقاً . أما
من الناحية الفكرية والنفسية فانهم لم يستطيعوا التعمق فيها حتى الآن .
ولذلك رأيناهم يركنون في بحثها إلى المشاهدات والتجارب . ولما كان
الشأن الاكبر في تقدير سعد ووزنه هو من الناحية النفسية . وكان انتقال
الخصائص الروحية عن طريق التوارث مرتبطاً تمام الارتباط بالتسلل الجسدى
من جهة أحداثه وقوانينه ونتائجه وأسبابه . فقد نحتم علينا في هذا المقام أن
نشير إلى أن الاجماع قد قام على أن التوارث الجسدى يشمل انتقال عناصر
الجسم ووظائفه . سواء أكان من ناحية تكوينه الداخلى . والخارجى أم
من ناحية أمراضه ومميزاته وتغييراته المكتسبة دون العارضية فهى الامر
كذلك من الناحية النفسية ؟

يجمل بنا قبل أن نخوض هذا الناموس النفسى أن نعرف ممن انحدر سعد
وماذا كانت غرائز منبته . وصفاته وخلقه وطبعه وتطواراته .

من انحدر سعد

ولد سعد زغلول في سكرم سعيد عام ١٢٧٧ هجرية بناحية إيمان التابعة
لمديرية الغربية . من الشيخ ابراهيم زغلول . واقداد صطلاح سعد وأقارب سعد على
أن الشيخ ابراهيم كان صمداً رغم فقره وكان هكذا في عهد سعيد وإسماعيل .

يوم كان المدة أداة تحقير للذات وللخلاق . ومن ارتضى أن يلبس في سهولة
هذا الرداء البشع تيسر الحكيم على قدر نفسه .

كان الشيخ ابراهيم زغلول رحمه الله كما وصفه لنا المرحوم عبد الله لك زغلول
طويل القامة . مليء الجسم . عريض المنكبين . واسع العينين . حاد البصر . فصيح
اللسان . كبير الرأس . حاضر الذهن . شهي الحديث . عف عن الثثرة . فكاه في
تدبر وتبصرة . يدور مع الزمن ويلعب . وبراوغ ووغان الثعلب . لا يخف لبه .
ولا يستريح قلبه . ولا تسكن حركته . وانما في رسالته وتؤدة تبلغ حد الخبلاء . إذا
سأله صديق أو قريب لا يسمع وإنما يجرح . لا يعرف بينه وبين الموزوع سلاسة
القياد . ولكنه شديد العناد . عسر الانقياد . يتناقى عمله والغيث الصيب . حتى في
الارض الطيب . ترى له في كل وقت . عادة مقة . ونزوة شيطان . تثير الجنان . وتطارد
الحنان . إذا أنت احسنت إليه ضاع احسانك كالخط على بساط الماء والرقم في بساط
الهواء . وإذا أنت ظللته بنعمة اشتغل بسكرها عن شكرها . وإذا أسأت
إليه دان بعد طماحه . ولأن بعد جماحه . فهو أمام الضعيف يتمنع . وفي خدمة
القوى يتطوع . ويستأسر لصاحب السلطان . ويحتأسد أمام الحبان . ولدوى النفوذ
يتذلل . وهلى الضمقاء يتدلل . فتجده أمام المأمور كار جوحة الموالد . دائما في
نزول وصعود . وقيام وقعود . قد حذق الانحناء في السلام والسجود . يقبل
الارض بين يدي الخاكم واليه يخفد . كأنه بهم بان يصلى الفرض أو يتعبد . ولا يحسن
الابتسام إلا إذا جلد . ولا يزداد نشاطا وغيره إلا ساعة التسليم . ولما ارتفعت حرارة
السياطعات إلى درجة الاكبار والتعظيم . ولكنه في الخلاء يضطرب ويضطرم . وفي
العراء يحتد ويحتدم . ويفور غيظا . ويتميز حقدا . ويتربد حنقا . واليدان حرتان .
مقيدتان . وجرة الغضب في صدره تلتهب . فلا ينطلق لسانه ولكن همته
تضطرب وتضطك اسنانه ورقبته تلمع وبغالب نفسه على الاغضاء . ويتلوى .

تلوى الحية في الرمضاء . ولا ينور وجدانه . ولا يتجاسك عند الارزاء . ولا يتمسك عند الصبر والامزاء . وإذا دعه المظهر لي يبيع الماء لشراء الاماء . وإذا نقصت غلته . زادت غلته . يرضى من الفضل . بالقول للفصل . ومن انبر الجزيل . بالكلام الجزل . لا يعمل في مجاهدة هواه . ولا يركب الصعب لتحقيق مناه . وإنما يقدر إذا قدر . ولا يبسط في التقوى وإنما يقدر . لاشبيه له إلا المصفوران أنت تركته فات . وان قبضت عليه أمات . « فهل تأصنت في نفس سعد غريزة الاستكانة والذلة . وتوافر فيه التجرد من فضائل البطولة والاقدام . وتزده عن العزة والكرامة . والخدمة في مواطن الخدمة . والصلابة في مواضع الصلابة ؟ وهل خاضت في أحماقه يناهض المجد الطبيعي . وتأصنت فيه نزعات الشهوات الممقوتة . ودفعات المطامع الخبيثة . فكان أداة سهلة الانقياد . وممولاً هداماً في يد الأقوياء . وسلاحاً بمجدين في يد الضعفاء . ان قبضوا عليه لتبييته في صدر المدونق أيديهم وهدر دماءهم ؟

كيف نحكم على سعد ؟

لا يتسنى لانسان أن يحكم على سعد إلا اذا عرف أولاً وقبل كل شيء هل هو رجل سياسى أو مادي ؟ . لأنه اذا كان من الجائز إزاء الفرد المادى أن نلجأ الى الطريقة التحليلية في بيان أثر التوارث في النفس . فمن المستحيل تطبيق هذه الوسيلة على اطلاقاً بالنسبة للرجل السياسى . لان رجلاً من القادة . أو زعيماً من الزعماء لا بد وأن يعمل بمختلف مواهبه معاً وفي وقت واحد . لا انتاج عمل معين . وبمعنى آخر . ان رجلاً سياسياً لا مناص لجيم قواته من أن تشترك في اخراج أى عمل يقوم به لان نتيجة أى جهد من جهوده المنفردة لا قيمة لها إلا اذا عاونت في الثمرة النهائية لكده . واذن فالغرض الذى يدركه من جده ما هو إلا انتاج لوسائله المشتركة

ان المفكر أو العالم يستطيع أن يكون معزول عن المجتمع وهو صاحب في أرقى طبقات التفكير وامحهاها . دون أن يشعر بشيء . أو يؤدي تفكيره إلى انتاج أى شيء . والفنان يمكنه أن يتصور أنه ينعم ويلتذ باجل وأجل الاحلام . دون أن يتأثر بالعالم المحسوس . أما الرجل السياسى فيشترط فيه توافر الذكاء والقادر على استيعاب الخاص والعام . والحقيقة والمجاز في وقت واحد . وإلا فإنه ان عجز عن التعميم كان قصير النظر . لانه يحصر عمله في التقليد والمادة . كذلك نرى أن السياسى ليس في مقدوره كالعالم والمفكر والفنان أن يكتفى بما يصل اليه من النتائج العامة التى يستغلها هؤلاء من ابحاثهم لان مهمته تقتضى بطبيعتها أن يفصل فى أى مسألة خاصة . معينة . ولذلك وجب عليه أن يلهم بالجزء والكل . وأن تؤدي أفكاره إلى أعمال . وهذا مايفرض على السياسى ألا يكون نظريا مضاربا . وأن يكون على العكس رجلا يتخذ من النظريات وسيلة لتحقيق العمل الذى هو غايته . وليس فى الامكان ذلك إلا إذا كانت أرائه حديدية دءوبا تمتاز بالاقدام والشجاعة . والثقة بالذات . والقدرة على التأثير فى المستضعفين والمترددن والمهاجرين .

فالخصائص التى يجب أن يتمتع فى الرجل السياسى لتعمل فى وقت واحد وفى السرعة والطمأنينة والثقة التى تتطلبها لحظة من الملاحظات . سواء لحظات الهدوء أو الخطر . هى إذن موهبة الملاحظة التفصيلية السريعة البعيدة الغور . وحضور الذكاء الامينة التى تذكر فى دقة وفى غير تردد نتائج النظريات ومعرفة المخاطر التى لاتؤنسها الظروف المباغتة . والارادة الصاب . والقوة الجسمانية التى هي أساس كل عمل من الاعمال .

ولقد دلت التاريخ على أن جميع الصفات الروحية تنتقل كلها أو بعضها بالتوارث . وإذا قلنا بعضها فما ذلك إلا أنه قد يحصل أن الوحدة الاصلية تنكسر عند انتقالها إلى الخلف فلا ينجى منها غير شطر بسيط .

وانضرب مثلاً واحداً بانتقال نشاط الارادة . فانه كسكل نشاط روحي آخر يمكن أن يفتقل بالتوارث . فقد لاحظ فولتير ذلك عند ما درس آل جيز حيث قال : « ان الجسد . ذلك المولد الخلقى . ينقل الصفات من الاب إلى الابن خلال مصور . فلقد كان آل بيوس شحا . لانتثنى لهم عزيمة . وكان آل كانون قساة القلب دائماً . أما سلالة آل جيز فكانوا جميعاً مقادير بواسل . هامين بالعمل دواما . فياضين باوقع كبرياء . وأفصح عجرة . مع تأدب لاجلأذنيته وخذاعة فالجسيم . ابتداء من فرانسوا ده جير إلى ذلك الذي ذهب من تلقاء نفسه إلى نابولي دون أن يدعوه الشعب وأقام ذاته ولي أمر عليه . كانوا في صورة برزت فيها الشجاعة ورجاحة العقل لحد هماغن مستوى الرجال

ده جير من الرأس إلى العقب . وكذلك
دت أن قامتهم . ستة أقدام . أما
ميون والوقوفات فواحدة . (راجع

الواجب إذا نحن درسنا التوارث في
المركز السامي الرسمى شارة جدارة
كون عمل الرجل مقياساً لجدارته
فان مجد الآباء والاحداد وعلاقات
إلى حد بعيد وقد يكون كل شيء في
نح النبلاء في انجلترا وفرنسا وتاريخ

سياسيا ؟ أن هذا يتطلب أولاً البحث في النتائج

النفسية لقانون التوارث وقانون البيئة وثانياً استقصاء عمق تشكك سعد وتأثير هذا التشكك في قوته العقلية والمصبية

النتائج النفسية لقانون التوارث

والآن يجدر بنا أن نبحث عما إذا كان جميع الاشكال التي يتشكل فيها النشاط لروحي تنتقل بالتوارث في درجة واحدة أو من الممكن ترتيبها حسب نظام معين من ناحية قوة انتقالها وضعفه . واجتناباً للخوض في النظريات العديدة المعقدة نقول أن جميع أشكال النشاط تنتقل على الترتيب الآتي .

(١) ينتقل جزء عظيم من الغرائز التي يتألف منها مجموع الحياة النفسية . ولقد اختلف العلماء في تعريف الغريزة . ولكن هناك تعاريف ثلاثة توضع الفلاسفة والطبيعيون على إنها أدق التعاريف .

فاولها يقول : أن الغريزة حمل يقرب من أن يكون آلياً لا يدخل للارادة فيه . ومن الراجح أنه خلو من التمييز . وتقوم به الحيوانات قصداً إلى الوصول إلى غرض معين باستخدام جسمها وأخلاقها

ويقول التعريف الثاني : أن الغريزة مرادف للرغبة والميل والنزعة ولهذا ينكلمون عن غريزة الخير والشر وغريزة السرقة والقتل — الخ

أما التعريف الثالث فإنه يفهم الغريزة على أنها اسم يشتمل على جميع الاحداث الروحية التي تقع في داخلية الحيوان . بما فيها جميع أشكال النشاط الفكرى التي انحطت عن صورة نشاط العقل الانسانى . وهذا راجع إلى الزعم بأن الحيوان يتمتع بحاسة الذكاء .

على أنه قد يكون هناك تعاريف أدق من تلك . فقد قال هارتمان « أن

الفريزة عمل يتفق وغرض وانما دون تمييز هذا الغرض . وقال دورين
«أنها العمل الذي لا نستطيع انمامه إلا بتمامه الماديات مع مؤثر خارجي
في المجموعة العصبية ولا دخل لا رادتنا فيه »
والفريزة أما مركبة أو بسيطة . فالمركبة هي مجموعة غرائز بسيطة والبسيطة
هي إحدى الماديات

أما الفارق بين الفريزة والذكاء فيمكن تلخيصه فيما يلي .
(أ) الفريزة طبيعية . أي أنها خلقت في الانسان قبل أي اختبار ذاتي
أما الذكاء فينشأ في بطنه وبالجمع بين التجارب وتكديسها .
(ب) تبلغ الفريزة حد الكمال بوجه عام عند الخلقة . أما الذكاء فإنه
يتعمس ويحرب . ويفوت عليه الغرض . ويسقط في الخطأ . ثم ينهض باصلاح

من هنا يكون انعدام التمييز .
ولا الوسائل التي تستخدمها في
يلوح أنه مقنن بالفكرة ولاشية
تطور ولا تتقدم ولا تتأخر ولا
مو ويضمهر . ويكسب ويخسر .

ت مطلقة فان تبدلها يقع على
ن بقاءها هو القاعدة وما التغيير
فقاعدته التغيير والتبديل .
يست أداة في مرونة العقل . فهو
الظروف ولا أن تلابسها كالعقل

الذى يلين ويتغير فى آلاف من الطرائق . ولكن التجارب قد دلت على أن الغريزة مرنة لحد ما عندما تؤثر فيها مؤثرات ذات بأس وسلطان ثابت . وهناك سببان هامان يحددان هذا التغير فى الغريزة وهما الوسط والمادة . فالجوع والارض والغذاء والاختطار القاسية المحيطة هى المؤثرات التى تخضع لها طبيعة الانسان وتتمكن من تغيير غرائزه . وهذه التغيرات أو الغرائز المكتسبة تقر فى النفس وتنتقل بالوراثة (راجع التوارث النفسى لتيوفيل ريبو ص ٢٥ وما بعده او مشكلة الحياة لبوردو)

فاذا اتبعنا القاعدة الخاصة بالغرائز الاصلية الطبيعية كان لنا أن نقول ان مجموعة غرائز العمدة ابراهيم زغلول قد انتقلت الى ابنه سعد الله زغلول . ولقد تقدم بيان غرائز الشيخ ابراهيم ضمن وصفه . ولا يمكن أن تكون نزاهة هذا الوصف موضع طعن لما كان بين عبد الله بك زغلول وسعد زغلول من جفاء . لان أخلاق سعد وأعماله وأقواله تؤيد هذا الوصف المنفرد تأييد واذا أردنا أن نطبق القاعدة الخاصة بالغرائز المكتسبة وجب أن نبحث فيما اذا كان قد طرأ على ابراهيم زغلول ظروف وأحوال وأهوال بدلت غرائزه الطبيعية وأقرت فى نفسه غرائز جديدة مكتسبة .

لقد بقى ابراهيم زغلول فى بلده صغيراً وطاش عمدة كبيراً . تخلصت غرائزه لطبيعة عصره الاستبدادى . عصر عباس وسعيد واسماعيل . وفضلاً عن هذا فإنه لم يشترك فى واقعة من الوقائع الحربية التى بقى رجال مهربى كرون مجدها ويتحدثون بعظمتها . ولم يعرف من المصريين هؤلاء القواد الذين تنقلوا بين الجبال والوهاد . ومجد الحروب من حولهم يطأطأ الرأس أمام مجدهم الطبيعى . والجلال بمجدهم اليهم فى خبيل ليس بجدى التقرب الى جلال نفوسهم ، ولم يعيش الشيخ ابراهيم

واقفات خلف ربي القلاع والحصون كأيام ذلك المعاهل . ولم يسد فرنسا :
سمت كذلك الذي أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتجسّدون عن الموت إبان
حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات
طبول الحرب . أما الميرون فأنها لم تعهد شمساً أظهر وأنتى من تلك التي جففت .
كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل .
فلقبها الناس بشموسه في معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون
خلق تلك الشمس بعدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم
تسكن بمسطة طيبة أن تتجهّم إلا في الأيام التالية للمعاركة .

« فهذا الهواء الذي تشبعت به تلك السماوات النقية التي بذغ في كبدها
المجد الساطع . وتلاً في الحديد اللامع . هو الهواء الذي استنشقه أطفال ذلك
العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا فرابين في مذبحه اللامخضهم يعتقدون
أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة . بعيد لا تدركه
رصاصة . وإذا مارأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله
يتهاطل في صغير وتدوية . قدروا له الخلود في عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة
نكران الذات أن فرضوا الموت لزاماً في المعارك الدموية . ذلك بأن
الموت كان في ذلك الحين ، دليلاً مستعذياً جميلاً رائعاً في ثوبه القرمزي الساخن !
لا يلوح أمامهم إلا كالأمل على سماء بسواء . فإذا هو حصد السنابل الصغرى
التي لما تبغرسن الشباب فما ذلك إلا لأنهم قد بلغوا حقائق سن الشيخوخة ونظر الموت
الذي لا يخطيء في تقدير أعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشباب كهل
إذا مات في الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية ذريها . وجميع
النعوش الروسية . حتى أنك ما كنت تهتر في فرنسا على شيخ . فاما جثث هامدة .
وأما انصاف آلهة »

وأما الثورة للحق والعدل والقانون أو للمعظمة والمجد في التاريخ فأننا نستطيع أن نستخلصه من كلمة عن أبناء الثورة الفرنسية الذين حاربوا صفوف جيوش نابليون . وظروف هؤلاء لم تكن كظروف الشيخ ابراهيم زغلول العمدة . كما أن ظروف أبنائهم لم تكن كظروف سعد زغلول أثناء الحرب وبعده

أبناء الثورة الفرنسية

« وضع الامهات الفرنسيات جيلا قوى المراس . نجلا عصبيا . بينما كان الآباء والاخوة يحاربون مع الامبراطور في المانيا . ولقد حملت الامهات هذا الجبل خلال ممر كنين . فترى في المدارس على نفقات الطنبور . ونقر الطبول . آلاف مؤلفة من الاطفال . كانوا يرقون بعضهم البعض بنظرات حليها الحزن ورصعتهما الكآبة وهم يحاولون قتل فضلاتهم الغديلة . أما آباؤهم فكانوا يظهرون بغتة ليرفعوا أبناءهم إلى صدورهم وقدوشحها الذهب . وسطمت الاوممة من فوقه . ويضعوهم بين أذرعهم . ويضعوهم في حنو وشفقة داخل مهادهم ثم يمتطون صهوات جيادهم مولين وجوههم شطير الميدان .

« كان رجل واحد يعيش في أوروبا وثنيذ . أما باقي الخلائق فكانوا يبدلون قصارى الجهد في سبيل امتلاء رئتيهم بما استنشقه ذلك الرجل ثم تنفسه . ولقد كانت فرنسا في كل عام تهديه ثلثمائة الف ساب . ولعمرك إن هذا المدد كان الحزبة التي تدفع لقيصر . وإذا لم يتسن له الحصول على هذا القطيع عجز من اقتفاء أثر حظه . بل انه كان الحرس الضروري له حتى يتمكن من اجتياز أوروبا .

« لم يمر بفرنسا في أي وقت سابق ليال تأرقت فيها الجفون كلها إلى هذا الرجل . وما انقضت عليها أيام أطل فيها على العالم شعب من الايامي والثكالي وهن

واقفات خلف ربي القلاع والحصون كأيام ذلك العاهل . ولم يسد فرنسا صمت كذلك الذي أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون عن الموت إبان حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات طبول الحرب . أما العيون فأنما لم تعهد شمساً أظھر وأنتى من تلك التي جففت كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل . فلقبها الناس بشموسه في معركة « استرلنر » . ولكن الواقع هو أن نابليون خلق تلك الشمس بمدفعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم تكن بمستطاعة أن تتجهّم إلا في الأيام التالية لمعاركه .

« فهذا الهواء الذي تشبعت به تلك السماوات النقية التي بذغ في كبدها المجد الساطع . وتلاّ في الحديد اللامع . هو الهواء الذي استنشقه أطفال ذلك العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا فرابين في مذبحه للام خملهم يعتقدون أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة . بعيد لا تدركه رصاصة . وإذا مارأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله يتهاطل في صفيير وتدوية . قدروا له الخلود في عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة نكران الذات أن فرضوا الموت لزما في المعارك الدموية . ذلك بأن الموت كان في ذلك الحين . حلوا مستعذبا جميلا رائعا في ثوبه القرمزي الساخن لا يلوح أمامهم إلا كالأمل على سواء بسواء . فإذا هو حصد السنابل الصغرى التي لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لانهم قد بلغوا حقا سن الشيخوخة في نظر الموت الذي لا يخطيء في تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشباب كهل إذا مات في الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية ذريعا . وجميع النعوش روسا . حتى انك ما كنت تعثر في فرنسا على شيخ . فاما جثث هامدة وأما انصاف آلهة »

وبعد أن سقط نابليون « جلس على انقاض العالم شبيبة حزينة مفكرة .
 نجيع هؤلاء الاطفال كانوا نقطا من دماء متقدة محرقة طقت على وجه الارض .
 أنهم ولدوا في الحرب والحرب ، فر باخلامهم خلال خمسة عشر عاما صبور
 تلوج موسكو . وشمس الاهرام . وإذا كانوا لم يبارحوا مدنهم . إلا أنه قد
 اتى إلى رؤسهم أن كل حلقة من حلقات الدفوع عن هذه المدن تؤدي إلى
 عاصمة من عواصم أوروبا . فارتسم في أدمغتهم عوالم متعددة . ولكنهم
 كانوا ينظرون إلى البطحاء . ويرفعون رؤوسهم إلى السماء . ويدبرون في
 الطرق والمنعطقات فلا يجدون إلا فراغا . »

وساد السكون . « ولكنهم مع ذلك قد رأوا رجلا يصعد المنبر . ويده
 عقد أرم بين الملك والشعب . فاحاطوا به في صمت . وأخذ هذا الرجل يقول
 « إن المجد شيء جميل . وكذلك الطمع في الحرب . ولكن هناك ما هو أجل !
 هناك ما نسميه الحرية »

« فرفع الاطفال هاماتهم . وذكروا اجدادهم الذين تسلموا عن الحرية
 فكان في هذه الكلمة ما خفقت له قلوبهم كما تخفق للأمال الحارة أو ما هو أبعد
 منها . وأخذتهم هزة عنيفة عند سماع هذه الكلمة . ولكنهم شاهدوا في
 الطريق أثناء عودتهم ثلاث سلات بها ثلاثة صبية . اقتادوهم في هذا الشكل إلى
 « كلامار » . وكل جريرتهم أنهم نطقوا بهذه الكلمة في صوت حموري فعلت
 شفاه الاطفال ابتسامة عجيبة أمام هذا المنظر المحزن .

« ولكن خطباء آخرين صعدوا المنبر وعددوا علنا نتائج المطامع وفادوا
 بأن المجد غالي الثمن . وابتاعوا فظائم الحرب . واستمرراطويلا ينددون بالاوهم
 الانسانية التي كانت تتساقط من حولهم تساقط أوراق الشجر في الخريف . »

والجميع يصغون ويفركون جباههم بأيديهم . وكأن حصى شديدة أيقظتهم . «
 «وقصارى القول إهم ترقبوا الطرف المناسب للانفجار . وكان ذلك عندما
 اجتازت أفكار «بيرون» و«أراء» «جيتيه» حدود فرنسا . « ذلك بأن صوغ
 أفكار عامة ما هو إلا تحويل ماح البارود إلى بارود . ولقد امتص العقل
 الساخر اللاذع . الذى تملى به «جيتيه» العظيم . عصير الناكهة المحرمة كما يمتص
 الالمبيق روح الازهار . حتى خيل لمن لم يقرأه أنه جيل كل شيء . وسمعت
 الفرقة عباد الله المؤساء على اجنحتها إلى هاوية الشك العام كما تحمل الرياح
 الازفة »

(راجع الفصل الثانى من اعترافات موسيه)

فهل الظروف التى اكتشفت الشيخ ابراهيم زغالول كانت تؤدى به إلى أن يغضب
 للكرامة والشرف أم كانت من شأنها أن تغير من غرائزه كما غيرت ظروف
 الثورة الفرنسية وظروف عروبوات نابليون من غرائز الفرنسيين؟ وهل كان لما فى
 نفس سمعد أيام حملته ما أن طأ فى نفوس أبناء فرنسا؟ إن الشيخ ابراهيم زغالول
 لم يرفع عينه عن الالة التى كانت تكرمه على جميع الضرائب ولم المشور . ولا عن
 السياط الذى سخره فى سباح جلود العباد حتى ينقذ جلد نفسه . ولم يترب سمعد
 فى طفولته على نهات الانتصارات والاقدام والبطولة حتى تبرز فيه غريزة
 الابطال فيحقق له أن يدعى أنه ابن الثورة الذى يجب أن يقود الثورة ويحكم
 ليكون أبا الثورة على القديم والثورة للاستقلال والحرية وتكوين الوحدة
 القومية وأنما تى سمعد ابن المدة وطاش ممددة يرهب ولا يستحي . ويخاف ولا يرعى .
 ولقد ظهرت آثار ذلك فى تردده ونشككه وفى استخدام سلطان كان كافياً لأحياء
 أمة ميتة فاجهر به على أمة حية بعد أن سخره فى مصلحته . .

مواهب الملاحظة

بالحواس الخمس

ان مواهب الملاحظة بالحواس الخمس تتسلسل بالتوارث مع مختلف صور النشاط المرتبطة بها ارتباطاً مباشراً . ويظهر أن هذه القوة كانت قد انطقت في الشيخ ابراهيم زغلول بحكم الوسط المصري . وإلا فلماذا كانت الدال غير ذلك لو جدهنا سعداً قد حذق حاسة التعمق بنظراته لسبر غور الأسرار الانسانية النفسية ولعرف الدفين في القلوب التي أحاطت به أو استند عليها في بعض المواقف . ولكنه كان يأتي بنظراته على الشخصيات من بعده فإذا بهذه النظرات تتراعى في غير اتساع ولا عمق . ولذلك فإنها كانت نظرات خائبة . لم تأخذ إلا صورة ما ارتسم على الوجه دون أن تنفذ في غير شفقة الى الأعماق لتنتقل منها صورة طبق حالة النفس . حتى يقارن بين الصورتين ويصدر حكماً صحيحاً على الشخصية التي فحصها كي يبنى على أساس هذا الحكم علاقاتها ويحدد طريقة العمل معها وفاته .

العواطف

أما العواطف فإنها تنتقل في قوة اذا كانت بسيطة . أي خاضعة للجسم . وتنتقل في ضعف اذا كانت مركبة . أي لها ارتباط بالروح . أما اذا كانت خاضعة لتكويننا الحسدى والعقلى مما أي اذا تألف منها ما يسمى بالخلق . فان انتقالها يكون وسطاً بين هذا وذاك .

وتتجلى نتيجة ورائة العواطف في شكل مزدوج . فتارة تجمل من الممكن انتاج عواطف مركبة عن طريق تكديس العواطف البسيطة . وتارة أخرى تنجح الى الماضي ونحن اليه فتكشف عن جوهره بدافع عداء الوسط المحيط .

ذلك بأن في النفس غرائز وحشية وميولاً رحالة ورغبات دموية جامحة لا يقهرها الزمن ولا يخضعها، قد اختلفت في قرارة كياننا حية . ولكن مغمضة الطرف . وعلى أهبة التجلي دائماً .

ولكن أنار سعد الكتابية لا تمكننا من معرفة عواطفه . لأنها جميعاً متضاربة . متباينة حشوها التردد والحيرة والزعزعة والتشكك . وكل هذا الصراع راجع طبيعاً الى الجوهر الفزع الرعدي الذي انحدر منه سعد، ويكفي لتولد الرعدة أن سميد باشا كان يعدم شيخ البلدة لتستره على نفر القرعة . فإذا نحن عثرنا في صفحة من أقوال سعد على آية وطنية ، عثرنا في أخرى على عشر آيات مروق وذبذبة أو تراجع عن الصراط المستقيم ونكول وحنث عظيم .

أما ميوله الدموية الرحالة الجامحة التي كنت في نفسه بحكم الغرائز فانها لم تقو على رفع مأفوقها من الرماد في أدق المآزق الحرجة والظروف المعسسية التي عصفت بزعامته وأبعدت الحكم والسيادة عنه ولكن هذه الميول ظهرت، إنان جبروته وسلطوته ساعة إذ كان يقفه وقت هجوم الغوغاء على خصومه السياسيين المزل لهدموا دورهم ويحرقوا بيوتهم وينهبوا أموالهم وينزعوا أرواحهم دون أن يعقب على هذه الحقيقة إلا بقوله : «أريدون أن أحمي خصومي ؟ » ولقد كان له الحق في ذلك إذ لم يستكن في أهماق غير غدر الوحشية دون اقتدامها وجرائها . ولم يرك أنها حالة مناقضة لطبيعة الانسانية تلك التي لا تثير الوحشية ساعة السكارة وانما أنها جاهل وقت النعمة !!

وفي الحق أن هذا هو مسلك الممثلة . يقبم في عقر داره ساعة نزول المصائب . أو يهطم الى المأمور بتمسح بالاعتاب . وعلى المنصب يسبل الالعاب . وإذا ما قدر غدر . وعبس للاهلين وبسر . وإذا كان سعد لم يكن في ظاهره بربرياً وحشياً متجرداً من الرحمة والانسانية إلا أنه كان رجلاً قاسياً على أهله ووطنه . لا يعرف الدعة والبشاشة إلا لعدوه . ولا ينسلك الحب في قلبه إلا

للمادة . وإلا للمنصب . وأما من ناحية العواطف والاحساسات فلا يقل سعد
عن والده . حقد ومحابة . ولذلك فقد كان ثمن بطولته دهوره الامة وتحطيم
قوتها المعنوية لسنوات عديدة وهذا ما لا يمكن أن تتسامح فيه الامم والاجيال

في الذكاء

ينتقل الذكاء الفطري بالوراثة . ولكنه كلما بالاككتساب ازداد انتقاله
بالتوارث صعوبة . إلا أنه ينتقل على أى حال إلى حسنا . والشيخ ابراهيم
زغلول كان حاد الذكاء . ولولا ذلك لما عين عمدة في تلك الاوقات التى تحتاج
إلى ذكاء مفرط ومهارة ونعومة ولين ليبقى العمدة في منصبه يوما أو بعض
يوم . فكيف بمن قالوا أنه بقي عمدة عهداً طويلاً ؟
وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن عمل الذكاء دائماً ما يغلب على عمل الغريزة .
وهذا أثر من آثار المقاصة . فكل عضو تزداد قوته تؤدي هذه الزيادة الى
اضعاف قوة عضو آخر . فذكاء سعد الوراثى والمكتسب قد أضعف نفسيته
وأفقدته ميزات كثيرة سنعرفها فيما بعد كما سنعرف علمياً عند الكلام عن التأثير
الدينى وتحول سعد الى مذهب الشافعى أن هذا الذكاء المفرط كان سبب ضعفه سياسياً
وفي هذه الحالة ترى التوارث يقوم بمهمتين . فبالنسبة للذكاء نراه
عاملاً على الاحتفاظ بما يكسبه كل جيل من الاجيال . ويكسبه ليكون هذا
المكسب وسيلة لكسب اخرى أوسع نطاقاً كالريخ المركب . يزداد رأس ماله
فيزداد ربحه على التوالى . أما بالنسبة للغريزة . فان التوارث يعمل على استئصالها
إلى الضعف . ويصمن استمرار وقوع هذا الضعف على توالى الازمان . وبما
أن قانون التوارث يعمل استرداد ما تفقده الغريزة متمذراً فإنه يمهّد لحظ جديد
من خسارتها وضعفها . وأذن فقانون الوراثة يؤدي بحركة واحدة إلى
نتائج متعارضة .

ولهذا رأيت في سعد أن ما اكتسبه عن والده من الذكاء الفطري قد غدا
نموا قويا بفضل تربيته والبيئة التي تعلم فيها . وهي بيئة اختلفت كل الاختلاف
من الناحية العلمية والادبية والذنية عن بيئة أبيه

الاعادات والذات

لقد اختلف العلماء فيما له أساس بانتقال الماديات والذات بالوراثة ولكن
يكفي أن نقول هنا أن سعداً كان ينسى في يومه ماضيه في أمسه . وكانت
تحوئه اليدوية ساعة المدهيات والنوازل والبوائق وتطاحن الاغراض وتنازع
المطامع . وهذا واضح في أعماله وأقواله . كما هو واضح في الاضطراب
البارز في هيم الاول التي كان يبتكرها ساعة المأزق . فخذ مثلاً . « هل عندكم
تجريد؟ دلوني على السبيل؟ » مع أنه عمك يحق مصراب السودان قبل ذلك
بقليل . ثم التنفيذ شيء والاستنكار شيء آخر . والقضية المصرية دولية .
ولاحظنا مصالح لا تعارض مع الاستقلال وسنفصل ذلك باب التشكك .

قانون الملايسه

وإذا كان لانزع في تأثر الجنين بغرائز الوالدين إلا أن هناك من العوامل
ماله من السلطان القوي المعرق لقانون التوارث بسبب الوضع . وقد حاول
« هيكيل » أن يربط هذه المؤثرات تحت عنوان عام هو « قانون الملايسه »
ورد هذه العوامل إلى الغذاء والهضم باوسع المعاني (راجع تاريخ الطبقة
الطبيعية لهيكيل جزء ٩) . وهذا ما سنشير اليه عند بيان حياة سعد بالأحرى . ويكفي
هنا أن نقول أننا دائماً ما نشهد مصرع الحرية والاختيار في صورة أشم مما
يمكن تصورها عندما ننظر إلى هذا النضال المستمر في أعماقنا بين الاخلاق
الفردية والاخلاق النوعية . أي بين الشخصية والتوارث . ولكن الناس

يأبوا التسليم بذلك وينسبون كثيراً أن الوراثة سلطاناً على تكويننا
وأخلاقنا أقرون من نفوذ المؤثرات الخارجية مادية كانت أو أدبية. ولئن
ينسبون ذلك كل الحق إذا هم لم يهتمدوا على التجارب. واذن فالوراثة قد قتلت
الحرية في أهمها. ولذلك كان جباراً أم الضعفاء. وأداة ذليلة للهدم في
يد الأقوياء. وتاريخه فياض بالدلة القاطعة على صحة هذه الحقيقة التي
لا يأتيناها الجاني من خلفها ولا من بين يديها. وسنفصل هذه الآيات
المعجزات تفصيلاً وافياً فيما بعد.

قانون البيئة

وأثره في التوارث الخاص

لقد عني أخيراً علماء الطبيعة والنفس والاجناس والتاريخ بنفوذ الوسط
الطبيعي. وأما كيف يؤثر الجو والهواء والارض والماء والنظام الغذائي .
وطبيعة الانسجة والمشروبات وكل ما هو طبيعي في جسم الانسان وكيف
لا تصل الاستعدادات العنماء إلى مواطن الضمير وانما تدخل بلا انقطاع
في الحسد لتعمل بمساواة التو على تكوين ما يسمى بالطبع والخلق ولا حاجة بنا
إلى شرح ذلك فله كشمه الخاصة .

أما نفوذ التربية فله كذلك سلطان الطبيعة. لان التربية ما هي الا وسط أدبي
ينتهي إلى أن يخلق في الانسان عادة. بل عادات. ذلك بأن معنى التربية الصحيحة
ليس في دروس الآباء والامهات والاساتذة فحسب. وانما هو أيضاً في العادات
والمقائد الدينية. والمطالعات والاحاديث العادية والمباغنة. وهي في مجملها
مجموعة من النفوذ الصامت. والمؤثرات الخفية التي تعمل في العقل كما تعمل

المرئيات في الجسم . فتؤدى بصمتها إلى تربيتها . أى إلى اكتساب مادات .
على أن الواجب يقعى بأن لا نعتبر التربية من العوامل الانشائية المطلقة
وأن نحلها مكانها المشروع في عالم الابداع والخلق مع تغلب التوارث عليها .
ذلك بأن وجود التوارث سابق على وجود التربية . وناريخ حياة أغلب العظماء
شاهد على ذلك . كما أن حياة المفكرين والفنانين والمخترعين تدل على أن التربية ضئيلة
القيمة إذا قيس أثرها بأثر التوارث . فإذا قيل أن سلطان التربية كان مطلقا
وحاسما في بعض الطبائع كان هذا القول حقا . ولكنه لا يكون كذلك في
المجموع .

فالتربية وسيلة صناعة في مبدئها . نخلق فينا طبيعة فأنه تلوح في نظرنا
أنها جبت الجوهر . ولكنها لا تصل إلى هذه القوة في أغلب الاحيان . فكم
من رجال نحاول بهذه التربية ولكنها لم تهدم غرائزهم؟ فهي إذن ليست الادهانا
لما ينهار فتيتا عند أول صدمة . لتظهر الطبيعة الاصلية نهما ووحشيتها .
أوفضائها وقناعتها . ولقد يدهش الانسان في بعض الاحيان عندما يرى أن شعوبا
بلغت شأوا بهيذا من المدنية والوداعة والانسانية وحب الخير بان سيادة السلام
لا تلبث أن تنقلب عقب اعلان الحرب . أو عند اصطدام مطامعها حقوق الضعفاء .
وحوشا كاشرة تهبط إلى أحط دركات القسوة والوحشية . ولكنه إذا ما فكر
مليا علم أن الحرب ما هي لا عود لمبدأ الخليفة . وسيادة الهيمنة والوحشية .
وما وظيفة هذه الحالة إلا أن تبعث إلى الحياة تلك الطبيعة البشرية المتلازمة
معيها . والسابقة على أي ثقافة . وتخرجها من مكمنها في همستها . وتطولتها .
وعبادتها للقوة . والمطامع الاشعبية . ولذلك قد حق قول كارليل . « ليست
المدنية الاغلافا يستر طبيعة الانسان الوحشية وهي تحترق نار جهنمية »
فإذا كان لزاما علينا ألا ننسى كل ذلك . فمن الواجب في الوقت نفسه أن نعلم

أن التربية وأن لم تكن كل شيء إلا أنها قطعت بالعالم أشواطاً بعيدة في المدنية والرقى حتى وصلت بنا إلى ما نحن عليه من رفاة وترف . فهي لذلك عامل لا يستهان به . ومن الممكن أن نحمد أنفاس الغرائز إلى حين .
ففي أي بيئة تربي سعد ؟ وهل كان في مقدور هذه البيئة أن تؤثر في نفسه
وغرائزه حتى تغير معالمها وتبدل أطواراً ؟

في الكتاب

أقصد تلقى سعد زغلول العلوم الأولية في كتاب بقرية ابيانا . ومعلوم
الكتاتيب إذا إمتازوا عن تلاميذهم فمحفظ القرآن عن ظهر قلب دون فهم
معانيه وحكمه وسمو مواعظه وجليل آدابه . فهم اذنت ماجزون عن أن
يبثوا الفضائل والخلق الكريم في نفوس الاطفال . قاصرون عن تقويم أعوجاجهم
الخلقى وإنتزاع الرذائل الموروثة . أضف إلى هذا أن «فتى» الناحية تابع للعمدة
ومن رعاياه . فهو بهذه المثابة خادم أمين للعمدة ولا بناء للعمدة . لا يستطيع
أن يقاوم لهم هوى . أو يصرع لهم إرادة . أو يلاحظ عليهم تنكب الصراط
المستقيم . ولذلك لا يمكن أن تستنتج إلا أن وسط الكتاب أن لم يكن أنتمس
من بيئة بيت العمدة بحكم ما يجمع من شتات ألوان الاهالى ومزاولة «المقرعة
والقلقة» فإنه على الأقل متجانس معها . وحاجز عن أن يؤثر في غرائز سعد تأثراً
يرفعه عن المستوى الخلقى لا بناء العمدة في ذلك المهد السحيق .
لقد بقى سعد . في بلده يتعلم العلوم الأولية الى سن السادسة عشرة من
عمره . فهو إذن كان قد تكون وشب في هذا الوسط الذى يزيد الغرائز رسوخاً
أن لم يرجم بها القهقرى ويدهورها من جراء الاختلاط بمن هم أحط من
مستوى دار العمدة . ثم انتقل إلى القاهرة لتلقى العلم فى الازهر .

فهل كان الازهر والحياة التي يتطلبها التحصيل في الازهر . توفيقه . وتدهو التدريس فيه مما يساعد على السمو بفرايز ابن العمدة ؟

في الازهر

لم يكن وسط الازهر في مجمره بأرقى من وسط «دوار» العمدة ولا في المميشة التي تفرض على الازهرى بأرغد مما هي عليه في منزل العمدة . وكان سعد قد حضر العلم في الازهر على علماء أعلام كالمختار لهم الشيخ الميرزا العباسي والشيخ احمد الرفاعي أبو النجا الشرفاوي . والشيخ محمد مهدي . فان هؤلاء ما كانوا أساتذة له خاصة . ولا كان اجتماعهم به على التوالي . إذا كان قد أكثر من التردد على الشيخ محمد عبده كبيراً . فان عقيدة هذا الشيخ إذا لم تكن خالصة من الشوائب السياسية . وإذن فقد كان سعد كمثل أزهرى في بعض حلقة الدرس ثم ينصرف مع اخوانه الى زكره . وإذا خرج الرياضة والنزهة فالى أقرب بقعة منه . الى جبانة المجاورين . ولكن سنه ما كانت تساعد على أن يعتبر ويستعبر أمام طي الدنيا ونشرها . وانما ساعدته على أن يشب متسولا ويتزعم متسولا لينادي بان في ميدان التسول متسعا للجميع حتى انتقلت العدوى الى الامة جمعاء فأصبحت تسكنف حقها في كبرياء وعظمة هي عين الخزي القومي . وأي ذكر كان يأوى اليه سعد؟ وأية حياة تلك التي عاشها؟ ان حياة الازهرى في غابر الازمان ما كانت تدعو الى المنافسة في سبيل التمتع بها . ولا كانت تفرى على الاندماج في زمرتها . ويكفي أن يكون الانسان سيم وصفها من فم الاستاذ ابراهيم الهلباوي بك ليحزم بأنها حياة تعطل عن السمو بالاحساسات والعواطف والمقل . وتعوق نبيل القلب عن الاستظهار على نقيضه . سواء أطبقتنا قواعد قانون البيئة أو قواعد قانون الملاسة الخاص بالانداء والمضم

فلا الجو ولا الهواء ولا الماء ولا النظام الغذائي وطبيعة الاطعمة والمشروبات
ولا الاحساسات الازهرية التي كانت تدخل بلا انقطاع في جسد سمد مما
يستطيع أن يعاون على تكوين طعم جديد أو خلق جديد يغير خلق ابن العمدة
وطعم ابن العمدة أو يزيل أثر الرعدة المتخلفة عن «الفلقة والمقرعة»

أما التربية المدرسية الازهرية. أو بعبارة أصح أما الوسط الادبي الازهرى
الذى كان في جنته مجموعة من النفوذ الصامتة والمؤثرات الخفية التي تعمل في
العقل كما تعمل المراتب الجسم فانه قد أدت بصمتها إلى تربيته أى إلى اكتساب
عادات . ولستكنها لم تكن عادات تحمل على استئصال نزعات للعمدية . بل كانت
عادات تمنى نزعات المستبد الضعيف . ولا سيما إذا راعينا أن علوم الازهر
ليست أصليا عما يرمى المدارك . كالرياضة والفلسفة والتاريخ الخ

لذلك تخرج سمد من الازهر مطبوعا بطابع العمدية وبقى طوال حياته
كذلك إذ كان قد اكتمل وقتئذ سن النضوج . وإذا كان الوسط التالى لوسط
الازهر قد غر فيه أو طور ، فانما رماذ غشى النار لا يلبث أن يتطاير إذ
ما عصف ماضية غيظ أو حقد .

سمد بعد تخرجه من الازهر

لقد بقي سمد تقية للدانين . وغمرة للقاصدين . وغصه لعمه ارضين .
والعوبة في يد الفساوين . وشقاء السقيم . والداعى إلى سراط غير مستقيم .
والدليل إلى البلاء المقيم . والمروج لـمذاب يوم عقيم . سالك مسلك سنة
الاقوياء . وهاضم حقوق الضعفاء . ومقيم شمار دين الاذلاء وشرائعهم .
ومريد شوارعهم . ووارد مشارعهم . ليس القلب مفتاح . ولا البصير ته مصباح
اتخذ الحق ظهريا . ونبذه نسيا . لا تهون الدنيا عليه حتى يجدها

وراءه . وإنما هي عزيزة عليه فيحملها مكان إمامه . ولا ينصير الموت في أي وقت
أمامه . لذلك فإنه ما كان يمتد بالمدل عقيدته . ولا يطوي على الاحسان والتفضل
طويته . إذا ساد لا يمتدل الجائف . ولا يقصر الجائف . ولا يأمن الخائف .
ترعد فرائس العزل من رواعده . وتبرق أبصارهم من بوارقه . وتصعق الضعفاء
صواعقه . انه كان للاولياء والخصوم الشرفاء كالغيث العادي . وعلى الخالصين
الاطهار الاتقياء كالليث العادي . يعترف أعداء الحق بعوارفه وفضله . ويعترف
الاذلاء والمستضعفون من نواله وبذله . بينما لا يبذل أي جهد . في رعاية عهد .
ولا يتصافى على كدر الزمان . ولا يتوافق على غدر الخدثان . يجهل انه والناس
كاليدبن . وأن العين لا تستعين إلا بالعين . يحول موثيقه على الاحوال .
واختلاف الاحوال . لاهو لآخوانه عدة عند الشدة . ولا عصرة لدى العسرة .
بخالفك ولا يخالفك . ويصاديك ولا يصاديك . ويفارقك ولا يرافقتك . ويكاشرك
ولا يماشرك . أبداً لا يكون لك نافعا . ولا عنك دافعا . إذا حضر أنى ومدح .
وإذا غاب طاب واغتاب وقدح . ظاهره خل موافق . وباطنه سرطان نافق .
يزنك بالميزان الخفيف . ويقومك بالثمن الطفيف . همته هامة . ويده جامدة .
إذا احتاج تخاضع وتواضع . وإذا استغنى تكبر وتجبر . لا يتبصر ولا يتصبر .
ولا يعرف ان يتخذ من القناعة صناعة . ولا يرضى بالمال اليسير . حتى أمس أسيراً
للمياسير . متناقض . يكتب بالمسك ولا يختتم . كما يقولون . بالعنبر . ويورق
بالذهب . ولا يثمر بالجواهر . جبان الى مقره اسرع من الماء المتدفق الى مقره .
لم يكن لعمان هواه املك . فهورى بالمركب اللذيذ الى المهلاك . نيته معلولة .
وعقيدته مدخولة . ظاهره يسر الناظر . وباطنه يسمي الخابر . حذق التلقيق
والتمنيق . ومرد على الاختلاق والتزويق . كلامه من عناصر نفسه ولذلك
فلا تعرف الحقيقة أن تمشي في مناكبه . ويخشى الصديق أن يتردد في مذاهبه . وإذا

حارب فبصيف كليل لا يقطع. وإذا هم ليضرب يرنند ويرجع . فتري اليراعة الجوفاء اثبتت منه قوة . وأشد ممة . اذا ذكرت السيوف لمس رأسه هل ذهب؟ وإذا نقلت الانباء خبراً عن ريق الرماح مس جنبيه هل ثقب؟ وإذا جاء حديث المدفع غاب عن صوابه وتشنج. وأن دوى جمد في مكانه أو كان وكأنه قد فليج. وصمتهم نعام في كل ذلك في مكانه.

مع العرابيين

ترك الشيخ سعد زغلول الازهر وعين بقلم تحرير الوقائع الرسمية بالداخلية واستمر فيها سنة ثم نقل إلى نظارة الداخلية بوظيفة معاون أثناء وزارة محمود سامي. ثم عين ناظراً لقلم قضايا مديرية الجيزة إبان اشتداد الثورة العسكرية . واستمر في هذه الوظيفة إلى أن قمت الثورة ورفعت. ومن هنا يتضح أنه كان مشايها للعرابين وأنه كان خطيباً من خطبائهم المفوهين وخادم أغراضهم الإلحيين والالماقي بهذه السرعة إلى ناظر قلم قضايا دون مؤهلات حقوقية على النحو الذي كانت سعد يحايي به السعديين. فما هي عوامل هذا الوسط التي أثرت في نفسه وما هو مدى تأثيرها في غرائزه؟ . وهل سمعت به عن مستوى المسمد أم هوت به الى حضيض آخر؟

ليست الثورة العسكرية بنت اليوم الذي ظهر فيه عرابي على رأسها . وإنما هي بنت اليوم الذي هم فيه الضباط لمقاومة الوزارة المختلطة التي أقامت في سنة ١٨٧٨ صرح النفوذ الاجنبي في مصر. ولقد كانت هذه الثورة في بدايتها أصاب عود وأنبل مقصداً . وأشرف غاية . وأحزم قيادة . وأبعد عن الشهوة الخاصة منها في الايام التي تسلط عليها عرابي وانضم اليها سعد بعد أن أتم التحصيل في

الازهر . حيث كانت قد تطورت من ثورة قومية الى ثورة عراقية لا فكرة مامة لها ولا غرض أهمي ترمي إلى تحقيقه . وإنما كانت أنشودتها الوظائف العسكرية الأولى . الوزاردة أخيراً . كما تطورت ثورة سنة ١٩١٩ من ثورة وطنية الى ثورة معدمية . وانتهت بأن صادرت ثورة وظائف ووزارات .

ولقد تطورت هاتان الثورتان لعامل نفسي واحد هو الشهوة الفردية التي ازدوجت بعامل فكري هو التشكك . فكانت النتيجة واحدة : تدهور عام فلكارثة استسلام . إذ كان العراقيون في نهاية أيامهم قوماً ترددوا وتشككوا في الطريقة التي يحققون بها مصالحهم الخاصة . ولذلك فانهم أسدوا أقيادهم للخزي والعار فيما اصطاح على تسميته بمعركة التل الكبير . بعد أن ضمنت انجلترا للعراقي عزل الخديو توفيق . بينما الانجليز هم الذين فشلوا أمام كفر الدوار وكان في المقدور عسكرياً الحاق النشل بهم نهائياً بدم القناة واطلاق المياه واغراق الشرقية ولقد انغمس سعد في معان هذا التردد فطبع عليه وتأثر به وبقي في جميع أدوار وظائفه وحياته المقول إنها سياسية كالريشة في مهب الريح لا يستقر على حال . إننا لسنا أشفق على سعد من نفسه . ولقد أعلن جهرة وفي محضر الجمعية التشريعية بتاريخ ١٦ يونيو سنة ١٩١٤ أنه رجل متردد متشكك . متلون المشهور والمقائد حسب المنصب . ووفق الظروف . فاذا كان قد اكتسب شيئاً من الثورة العراقية . فانما يكون قد اكتسب تدهوراً في العزيمة . وانخطاطاً في القوى القادرة على تكيف الادراك وتكوين الاحساسات . وهذا ما سنميزه تفصيلاً عند الكلام عن التشكك .

بعد الثورة العراقية

أقصى سعد عن وظيفته بعد اخلاء الثورة العراقية فأتخذ الحاماة أمام المحاكم الملقاة مهنته . ثم اتهم فيما بعد بالانضمام إلى حزب الانتقام وهو الحزب الذي تأسس

في مصر عقب قمع الثورة العراقية . ولكنه برى بعد سجنه عدة أيام ولما تشكلت المحاكم الاصل انضم إلى المرحوم حسين صقرو لثقتلا سوريا أمامها ولما مات وضم بدله إلى لثقتب ولهذا الشأن حكاية قامية . ولكن الحماية في ذلك الحين لم تكن مما تؤثر في النفس أي تأثير . أو تحدث فيها أي انقلاب بحكم وسطها ووسط المعاصرين . إلا أن نظام سعد كانت كبيرة . ولذلك تدخل في المقامات المال . يود إلى الدوائر الانجليزية . وانحط في سلك ندماء المرحومة الامير . تارلي هانم افندي . فكانت حبل اتصاله . الوثيق بالساسة الانجليز من جهة . وبمعضني فهمي باشا من جهة أخرى . وتم تعيينه في السلك القضائي .

تقرب سعد إلى الانجليز وتزلف . وارغى في أحضانهم وتمرغ . وكان صهره مصطفى فهمي رئيس الوزارة المطواع خير معين له على هذا التمرغ حتى احتضنه الانجليز . فحسوه برعايتهم واتخذوه وزيرهم يشهد أزدادوب في محاربة العلم والتأليه اللغة العربية والكفاءات والوطنية . والاحساس المصري والمصالح المصرية الازلية . والحريات بمختلف أنواعها .

فمنذ سنة ١٨٩٠ حتى سنة ١٩١٣ والانجليز يحتضنون سعداً . ومنذ سنة ١٩١٣ حتى ١٩١٨ وهم يمنونه ويواسونه . ومنذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٧ وهم يداعبونه وبدلونهم حتى انطبع نهائياً بطابعهم . واسلم زمام نفسه اليهم وقياد زمامته لمثلهم .

لقد قلنا هذا القول وأشد منه لسعد في حياته . بل واتهمناه بالخيانة إذا بحث تهمة الخيانة التي أسندها لعدي باشا . ولقد قدمنا الدعا كذا وصدر الحكم ببراءتنا ونأ . وجهة نظرنا وهاهي جرائد الوفد تسترف اليوم بالجريمة لعظمى في غير خجل . ولا استحياء . وفي معرض الاستجداء المستنوي في قالب لتعير باسداء المعروف للانجليز والتساهل معهم والتسليم لهم في حق الوطن

ولعمرك أنه لتعمير بمثابة الشهادة القاطعة على جريمة الحياة العظوى

قالت صحيفة الجهاد المصادرة بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان (السياسة البريطانية ضد مصر اللبوء) ضمن ما قالت ما يأتي: «محصياتنا في هذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التي طالما حبسناها في صدورنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسة وترقيتها الظروف)

«ولكن حبل هذه المصاهرة قد طال حتى تجاوز طوله كل مقبول . وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح»

وإذا نحن ذكرنا هذا القول فأنما على سبيل التمثيل لا الحصر، إن ليس المقام مقام التذليل على ألهم الصحيحة وإنما مقام امتشاد على حالة نفسية عقلية مكتسبية بباطل الوسط قد جاءت مدعمة للغريزة الأصلية في سعد . وهي غريزة التسليم للقوى . والتقهقر أمام الباطل . أو طلائه بدهان يظهره في صورة الحق تطميناً للنفس وترويحاً لها .

فاختلاط سعد بالأنجليز . واحتكاكهم الدائم بهم ومستشاريهم . وتمودهم بمجامع كلامهم والأصغار اليه وتنفيذه قد ألان في ابن العمدة لينة الطبعي . وأرخص من رعاوته الغريزية وأطلق يده في انتهاب حق الغير ليجود به ويسخره تمليلاً للنفس باستبقاء هيبة العمدة وأبهة العمدة . وضاعف من زهده في خدمة المصلحة العامة التي لا يعرفها الممدد ولا ابن العمدة إلا كرها منه أو تظاهراً . بإدائها احتفاظاً بنفسه أو مركزه أو زعامته على أهل قريته .

هل هناك عناصر أخرى

غيرت من غرائز سعد ؟

كان سعد من تلاميذ الشيخ محمد عبده . ولكن الشيخ محمد عبده كان رجلا مصاصا اجتماعيا أو دينيا إذا صدقنا اللورد كرومر . دون أن يكون مصاصا سياسيا بما يدل على ذلك جميع مواقفه ومذكراته ومطالبه الخاصة بالحكم الذاتي . ولذلك لم يكن في وسعه أن يخلق زعيما سياسيا . فنهك هناك وسط احتك به سعد غير وسط المنزل والكتاب والازهر والوظيفة ؟ وإذا كان فهل كان هذا الوسط على قوة تستطيع أن تؤثر في أهواق سعد ليجتث منها غرائز بطش الضعيف بالأضعف . ورعدة انواهن أمام القوى . وطلب الطمن . والنزال إذا ما خلا سعد إلى نفسه ؟

نعم هناك الرأي العام . ولكن هل كان هذا الرأي العام قد تكون أيام شباب سعد بعنفه جذبية صالحة لأن تقدم أصلح غذاء لتقويم النفس . وتهذيب الخلق وتثقيف العقل . وتدعيم الإرادة . وتطهير الضمير ؟ لقد شهد سعد أول ما شهد نهاية ثورة . وفترة انتقال حاف كلاهما المتاعب والطين والايماء والصنعب والعجز والنوم .

قيل نهاية الثورة

لقد ظهر سعد فوق خشبة المسرح في عهد مليء بالحوادث الحسام فياض . بشارات التدهور التي ارتسمت في أفق الغيب الساخر لتقبيء أن مصير مصر على أهبة الانقلاب . ونهد لتوطيد دعام الحكم الاجنبي في وادي النيل . كان مظهر العربيين وقتئذ غير مخبرهم . انهم كانوا يلوحون في صف مصر

بينما كانت برا كبير المصالح الخاصة الخفية تقف على عاتقها بالاطاعة والصحابة. ورغم ما من أنه قد كان و مقدور أغلبية النواب الذين أيدوا امرأى أديروا كائنا من كان بنفس الحماس والغيرة والمقيدة المصطنعة والثقة القعمية. ورغم ما من أن هذه الأغلبية لم تجرم صفوفها حول فكرة معينة أو راجح معين. بل كانت حائرة مترددة متشككة لها في كل يوم شأن. وفي كل يوم ميل وشهوة. فان ارتباط أعضائها ببعضهم لم يتوثق إلا لما أزدغم يديهم بحقيقة بمصادقة الوزارة أو بالانحراط في سلك خصومها. كواقف اليوم وأمس ولقد معينا المصريين والاشباب يتحدثون عن العربيين والخليويين. أي عن حزين. ولكن الواقع كان نهض سلطانا على أن ليس ثم فراق مبدئية بين المعارضين والحكوميين أي بين المؤيدين للخدو والمناضين لمرأى فالفرقان قد امتازوا بالرغبة الشديدة تجلت في الشهوات التي استبعدتهم عن الحكم ثم فرضت عليهم السعي في مبدئية استعادته.

فالشأن بالأمس كان لا يحاكي غير شأن اليوم. عقول دائما قلقة مضطربة دون أن تقرى على أي عمل أو تستطيع استخدام ما أوتيت من مواهب لتعزى أصل الداء الظاهر والوصول الى حقيقة له الحاح. والواقع أن كل شيء في مصر قد قام بين رجال يمكن أن يقال أنهم جميعا من مستوى واحد. ومصلحتهم الدنيائية واحدة. هي في استبعاد من مما علمهم ومن دونهم عن الوظائف العمومية. ولهذا فان الطبقة المتوسطة سادت وحكمت. ومن الراجح أن لا يفهم حيننا كيف ظهرت حكومة عراقى في نهاية أمرها بظهور الشركة الصناعية تجري أعمالها وراء تحقيق الاستغلال الذي يرغب فيه مساهموها. كما ان من الراجح أن يعجز الجيل القابل عن أن يتصور كيف تقل سعد هذه بالخطوة وطبقها. وكيف اتبعها من بعدهم الوزارات المختلفة.

بلاغة الخطباء

أما بلاغة خطباء الثورة العراقية فقد وصلت نسبياً إلى حد ممتع . ولا عجب في هذا القول . فان كفايتهم إذا قيست بمستوى الأمة انضج أمها من ذلك الطراز الذي حذق إخفاء تجويف الفكرة وفراغها بنقاب من المصاحبة الخلابية . وتبطنها بطلاء من نوع خاص من أنواع المبادئ السامية ، وتجميلها بنسج من النظريات الساحرة التي تأخذ المستمعين بالوحي والاقدام ولا تترك النظارة إلا أسرى القيود والأعلال الروحية . ولعمرك أنها قيود أفسى من الأذلال المادي . وهذا ما اكتسبه سعد وشاهدناه في خطبه . سحر ولكن يذهب بأحراق قليل من المخور العقلي .

فهل سمع سعد من حاكمي تير أو كافور أو جمينا متمصاً أو متجسداً البارودي أو عبد الله النديم أو عراقى لينظم نظام الحرية الصحيحة ؟ أو قرأ لوحد من كبار الرجال كتاباً وهو في ريعان شبابه حتى يشب مخلقاً مخلوق ونابى أو سياسى كريم ؟ كلا . فما كان بين العراقيين واحد يضاهى هؤلاء . وما بدأ سعد دراسة اللغة الفرنسية إلا حينما من الله عليه في كبره بالتمارف برشدي باشا فشجعه على تعلمها .

فمن أين تنغير غرائزه الخشنة . غرائز المعاش والموت كسنت في الضمير لتؤذيه وتؤذي سمته وسمعة بلاده ؟ من أين له أن يصل إلى ذلك وقد عجز عن أن يعاشر عظماء الرجال ولو فسكرياني الوقت الذي كان فيه كالمجنونة على استعداد لأن يسنه الوسط العقلي كما بهوى وإشياء ؟

فهل قرأ مرة أن «تير» جعل خلال وزارة جبرو (سنة ١٨٤٠ . سنة ١٨٤٨) يلقى في البرلمان من وقت لآخر محاضرات عن الشرف القومي والكرامة الوطنية ليهاجم بها حكم الفرد حتى برع في هذا الفن وأمسى كبير أساتذته

جاءت خطبته التي القاها بمناسبة ميزانية سنة ١٨٤٦ معجزة فنية لا نوردها كلها هنا وإنما نجتزئ منها بقوله « تبدأ الحكومات حياتها بالفوز والقلبة . ثم يقتادها مصيرها إلى الفشل والخذلان ... إن الأمة قد خولت الحكومة منك المشروعية الذي يعفيها من الحاجة إلى أي سلطان آخر في الوجود لا جازة هذا منك . ولقد كان الواجب يفرض عليها اذن أن تتبسم ادارة قوية ماهرة نظمة بصيرة . وهذا ما في طاعتنا أن نسميه سياسة متواضعة تستطيع مع الزمن أن تكون شريفة مجيدة وهل كان في المقدور منذ عشر سنوات أن نجتزئ على الافصاح بأن الملك يسود ويحكم رغم مسؤولية الوزراء ؟ . لقد كنا نقول إن أي فكرة عن توازن السلطات ونفوذ الملك والوزراء وتجارب عودة الملكية وذكرى الكارثة الكبرى يجب أن تدفعنا إلى السعي في جعل المسؤولية الوزارية جديدة حتى تكون الحصانة الملكية جديدة أيضاً ... وهذه هي القاعدة التي جعلت من (كازميررييه) وبرولى رئيسى وزارة بمعنى الكلمة « أن الامم المستتيرة لا يجوز ان تحكم على وتيرة الدول الاسيوية . ولكي نصلح نظام الوراثة قد وضعنا نظاماً حكيماً بقدر ما هو بسيط . وهو ينحصر في أن يكون بجانب الملك وزراء جد مسئولين . لهم من السلطان حقيقة ومظهره ... فالواجب على الوزراء الايتواروا وألا يرفضوا القيام بمهمة الوسيطاء والممارسة ... فالوزراء الذين يمحون أنفسهم قد يمكن أن يكونوا وزراء فصحاء بلغاء . ولكنهم ليسوا وزراء المسؤولية العاليه ... وعلى ذلك فالملك يسود ولا يحكم » وهل سمع سعاد أن يجتزئ أجاب على هذا القول في ٢٩ مايو سنة ١٨٤٦ بقول سامي الخطر حيث قال « ليس العرش كرسيا خاليا . وإنما هو كرسى له فكرة سياسية . ولا يجوز لاحد أن يحاول الجلوس عليه . » أن شخصاً ذكياً حراً . له أفكاره وحواسه . يجلس فوق هذا الكرسي

وواجبه يفرض عليه ألا يحكم إلا بالاتفاق مع السلطات العليا التي أنشأها الدستور... وليس من واجب مستشار العرش أن ينصر العرش على المجلس النيابي. ولا أن ينصر المجلس النيابي على العرش. فهمة الوزراء في بلده هي الوصول بهذه السلطات المختلفة إلى فكرة مشتركة. وسلوك متبادل. ووحدة في توافق الرأي حتى تتحقق الحكومة الدستورية ؟

لم اسمع سمع شيئاً من ذلك ولم يقرأ مثله وقت أن كان ص الحالتين يكونين جسمًا ونفسًا. ولذلك لم تكن حماقة خطباء العصر العراقي بكافية لتخدير الفرائز إلا لأسوأ.

هل كانت هناك ديموقراطية؟

وكيف يكون الأمر على خلاف ذلك ولم يكن الباب مفتوحاً أمام روح الديموقراطية التي كانت قد ذاعت في أمريكا وانتقلت إلى أوروبا قبل الثورة العراقية بما يقرب من نصف قرن ؟

لقد كانت الديموقراطية قد أصبحت أيام شباب سيمد أمرًا واقعا في أمريكا وأوروبا حيث تساوى الأمريكان أولا في الحقوق السياسية. ثم أخذت الفكرة تمهد أمامها سبيل البيت والنماء. دون أن يعوقها طائق أو ينزل بها قضاة حتى لقد حض السكتاب في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر على التأمل فيها والعمل لها كي يمكن الوصول إلى النتيجة المحترمة والمستقبل الثابت. إذ كلما تساوت شروط الحياة زالت الظلم العتيقة. والعادات السقيمة الموروثة. التي كانت أداة غير صالحة لأن تكفل للمجموع الإنساني حياة طيبة. وقام محلها نوع من الاستبداد « الواسع الرحيم » لئلا فوق رؤوس الجماعة شبكة من القواعد الصغيرة المضطربة الدقيقة المتلازمة. التي تحتم في بادئ الأمر إيجاد نظم تحمبها. ووسائل تزدود عنها. ولا يكون ذلك إلا في حرية

الصحافة وفي انشاء الجماعات والاحزاب القوية. وفي الامور كزية التي تخول كل
أقليم حياة سياسية خاصة . وهذا مادعا « نوكفيل » الاحيال القادمة لتحقيقه
ابتداء من سنة ١٨٤٠ . فهو ذاع في وسط عرابي شيء من ذلك حتى يكون
سمد قد تطبع به وأفتلم من نفسه بذور الولع بالشقاء والاشقاء ؟ كلا .
وكل تصرفات العرابيين تدل على عكس ذلك . وتهتف بانهم إذا كانوا قد طامخوا
بالمساواة في ماضي الامر . فانهم جعلوا منها في النهاية وسبلة حوات مصر إلى
زكة لم توزع على جميع أبناء مصر وفاق الفريضة الشرعية . وفاق الحق والعدل
والانصاف والكفاءة وقانون المنافسة إذ قصر وأوزيمها على أبناء عرابي
وذوي إرحام عرابي كما وزعت من بعده على أبناء سمد وذوي إرحام سمد ومن
بعده على أبناء كل وزارة وذوي إرحام كل وزارة كما كان بلا ترتيب بين الطبقات .

في مجلس النواب

وهل كنت تستطيع في النهاية أن تأنس في مجلس النواب نواح خصبة تقسم
لبذر بذور جديدة صالحة . وتطيق العمل لذلك . وتعمل المجهود الذي يستلزمه
أداء هذا الواجب ؟ وهل التفت حول عرابي بعض رجال تفرغوا لدراسة
المسائل الحكومية والشئون الادارية العامة وتمحيص الميزانية أو إصلاح
قانون الانتخاب وتنظيم العمل والاشغال العمومية الخ . حتى نستدل من
ذلك على وجود الروح الحزبية للزبنة ؟

وهل سمد نائب من نواب عرابي . أو عرابي نفسه بمساعدة الاخصائيين
إلى رد الحياة إلى طبقة الشعب التي إنطقت فيها جذوة الحياة السياسية
مع أن هذه الطبقة هي التي لها قبل غير هامي أنعدمت المساواة حق الحياة والوجود
دون الطبقات الأخرى التي لم تدب فيها الحياة إلا بفضل هذه الطبقة المجاهدة ؟
هذا إلى أن مصالح الطبقة المتوسطة كانت قد تلاهمت لدرجة تفادى الناس معها

كل مباغسة وكل انعدام «والم سياسي يتشكل بهذا الشكل لا يسمح لقيام أحزاب فيه بالمعنى الصحيح للكلمة. مادامنا لا نستطيع أن نلخص فيه تعارضاً وحرراً وخصباً وحياداً مما لا يتولد إلا عن وجود الأحزاب في البلاد الأخرى، »
ثم من سنطاع أن يرفع عقيرته أمام «أبي الأمة» الفلاح القحط مطالباً بالتصريح لفئة الشعب الاشتراكي المنتظم في إدارة الشؤون العامة حتى يعرفوا أن يومهم والجزء الثمينة في سبيل تحسين مصيرهم الأدبي والعلمي. وتعيم التكليف العامة ونصف المساواة القانونية والرفاهية الممنوعة بحق الملكية؟ من رفع صوته مطالباً بذلك رغمًا مما في هذه المسائل من شرف وعدل يستتضي به الضرورة ومختمه التبصر بالامنازع؟

لا. إن روحاً من هذا القبول لم تكن في وسط عرابي حتى تسمو بخلق سعد وترفسه من مستوى العمودية إلى مستوى ديمقراطي. ولذلك فإن سعد طبق واقع سنة ١٨٨٢ على سنة ١٩١٩ وما تلاها فحق الكفاهات.

الموقف العلمي والسياسي

إن بحث أساليب العامة للشعوب سواء أكان من الساحة السياسية أم من الناحية الاقتصادية لابد أن يعطدم بصعوبات تأداه عندما يريد أن يعرف نشأة المظاهر العلمية المختلفة. وذلك راجع إلى قوة التيارات الفكرية والتمارات الحيوية الرئيسية التي تسود الشعوب إن أنقضاتها. ولهذا تقرر ارتباط الانتاج الأدبي والفني بالظروف المتولدة من الحوادث السياسية والرقى المادي ارتباطاً وثيقاً.

فالأدب، والفنون في بعض الأحيان، تختلط بالسياسة اختلاطاً تاماً. ويرجع هذا الأمر إلى اشتراك الأمة اشتراكاً فعلياً في الحياة العامة. حتى لقد رأى بعض الدول أن من الطبيعي أن تمثل الأدب في البرلمان. وأن تمثل السياسة

في المعاهد العلمية ماذا الكاتب لا يحرز السلطان إلا بالمؤلفات والمقالات .
والسياسي لا يستطيع أن يسعى للمجد إلا عن طريق العلم والأدب . حتى لقد
رأينا النائب والشيخ والوزير يجنحون إلى الجلوس في مقعد الأديب ورأينا الشاعر
والفيلسوف والروائي وعضو المجمع العلمي يميلون إلى الجلوس في مقاعد السياسة .
وشاهدنا العالم والأديب يفخران بحكم أمتهمما والتشريع لها . حتى لقد كان طعم
« تير » في أن ينخرط في سلك المجمع العلمي الفرنسي بمادل مطمح « فكتور
هوجو » إلى أن يجلس في مقعد مجلس الشيوخ . ولما صادرت حكومة فرنسا
رواية « الملك يلهو » صاح هوجو : « الآن بدأت حياتي السياسية » فإذا
كانت الحال أيام الثورة العربية ؟

لقد كانت الثورة عسكرية . ولذلك لم تنمر إلا هدماً وركاماً ورماداً .
إنها لم تكن ثورة صهرانية قومية بالمعنى الصحيح . ولا هي ثورة فكرية
على الخصوص . وإنما كانت ثورة مناصب وإحلال إنسان مكان إنسان في العيش
والارتزاق قطعت شباب ذلك العهد بهذا الطابم ووصمتهم بهذا الميسم حتى
الآن . ونقل هؤلاء طمعهم بالوراثة أو المدوى إلى أبنائهم ومن خالطهم
وطاثرهم . فكانت الأساة التي نشاهدها اليوم .

ومع ذلك فهل سمعنا في ذلك الحين أن الكتاب قد نادوا بالديموقراطية على
أنها قاعدة المجد الذي لا يهزه مجد السلاح . وأساس النجاح الذي لم يحرزه أحد
قبل الآن ؟ وهل رأينا المؤرخين يهزون أعواد المنابر . على تقيض القاعدة
القديمة التي فرضت عليهم الوعظ في الدور والأزواء في المعاهد العلمية بجانب
العلماء ؟ وهل شاهدنا الروائيين يتحدثون عن الغيب وينبؤون بما وراء الحجب
بعد أن كان همهم ينحصر في سرد الأفاصيص ؟ وهل ألفينا الشعراء يسلكون
سبيل الهدى بعد أن كان دأبهم الترنم والغناء والمدح والهجور ؟ لا . لأن

وسطا كوسط عرابي ما كان يسمح بهذا . ذلك بأن الآداب التي كانت تسمى للبهتان والنصفيق وترغب كل الرغبة في التوجه للجماهير أمست عملا تجاريا . نحن . له نظام نفعي محكم هو فائدة عرابي ومن حوله . ولعمرك انها حالة كان من الواجب أن نستثير عواطف المصريين وتدفعهم إلى رفع الصوت طالبا ضد مخازي الآداب الحديدية والآداب المصطنعة النفقة . وواقم أيام زمامة سعد كان من هذه الناحية صورة طبق الاصل من واقم أيام عرابي

الصحافة والمسرح

ولكن الصحافة التي كان من الواجب أن تكون الوسيلة الاولى لترويج هذه السلامة لم تكن لحسن الحظ على انتشار وذبوع يمكنها من ذلك . فبقي الرباء منحصرا في دائرة عرابي وبيضة العرابيين دون أن يتحمل بقضه وقضيضه إلى الخلف .

على أنه إذا قال البلد في ذلك الحين وجود هذه الصحافة المنتشرة فكسبت بذلك اتقاء تماثيل الشر وتواليه . إلا أن هذا المكسب قد قابلته خسارة جسيمة هي المعجز عن نقل الثقافة العربية وإذاعة النظم الاستقلالية ووسائل تحقيقها أولا فأولا . ونشر المبادئ الحديثة والأفكار السامية ، كما تخصص عنها عقل ناضج .

ولعمرك أن موقفا كهذا ما كان يدعو إلى التأثر والاندهاش في سبيل الرقي وإنما كان يدعو إلى التأثر والنكوص على الأعقاب في همت التدهور . وإلا فلماذا واحد على تلك الهمم والمقول والعقريات والكفاءات الذين استشهدوا في دور الصحف وهم متأثرون بأن في ميدان الصحافة مصدرا لا ينضب من الجهد دون الثروة . وأما عرف والسمعة دون المصالح والشهوات ؟

وهل وجد في المسارح رقى يسمو بالغرائز والاخلاق؟ بل هل رأيت
ما وقع في أخريات أيام لويس فيليب عند ما كان المنهونون انتماء فيكمبون
الذين أقبل الشعب على منتجانهم بتقاضون حصص من ثمن الرواية على شعاعون
تجاري يرونه اذا لم يخرجوا رواياتهم؟ والقصص؟ هل رأيت الصحافة وقد
شغلت بها ثم هجرتها إلى النقد اللاذع فتولدت آداب وقتية سار وراء
شهورات الجمهور كواقع اليوم حيث يحاول الكتاب الآن أن يرضوا مطالبه
وذوقه وإحساساته؟

حتى هذا الشيء اللغيف لم يكن في ذلك الحين. حين الحذب الذهني المطلق
والجذب العسكري الحجري. فكيف لا يتأثر سعد بهذا الوسط المحيط وقد
غرق فيه من ذقنه إلى انخضه؟

الموقف الفكري وتحولاته

لو أن الثورة المرابية كانت ثورة فكرية لوجب أن تختلط الحياة العلمية
بالحياة السياسية والتجارية أيضاً حتى تألف الحياة العلمية هذا الاختلاط
وتجري الأقلام بوصف الواقع والحقيقة بصدق الخيال والعاطفة والحماسة. ثم
تنتقل من هذه المرحلة فتتناول النفس والخلق. وتنجح بعدئذ بالمجهود الأدبي
إلى الدراسات التاريخية ونقد الماضي وخص الآثار والفنون في القرون الوسطى
والمصور القديمة فخصا كان لزاماً أن يبدأ بإنشاء لجنة لدرس الآثار التاريخية
على غرار ما وقع في فرنسا سنة ١٨٣٧. ثم تأسيس مدرسة على وتيرة مدرسة
أينما التي تأسست في فرنسا سنة ١٨٤٩. وأن يتبع ذلك دراسات نقدية في
في الأدب واللغة ثم دراسة الآداب الأجنبية حتى تكون مرحلة المترجمين
الذين لا يعملون العمل ولا يكلمون من توجيه سيل جارف من الآداب الأجنبية

نحو معاهد العلم المصرية كي يؤدي الأمر إلى تجديد وبعث تاريخي . تنتقل معه النظريات من موقفها السطحي إلى التعمق وسر غور الحقيقة التي تنهجها الظروف السياسية والطبيعية والوسط على نور العلم القديم .

الفنون

وهل كان في مصر فنانون في عهد العرايين ؟ كلا . هم أن مصر مهد الفن القديم الذي أخذ فنانون الغرب يستوحونه ويمثلونه . وها هو ده لاكروا يقول لأحد أصدقائه . « أنى أصنف لك طربا وأعجبا من جراء ولوعك بالعصور القديمة . فهي ببوع كل شيء » ذلك بأن هذا الفنان قد فهم القديم كما فهمه شكسبير واعتمد عليه في إعادة التوازن للصحة الفنية بعد أن أصيبت بالحمى . فصور كيلواترا في سنة ١٨٣٩ .

إن شيئا من ذلك لم يتم إبان الثورة المرافية مع أن الفن من مستلزمات الوطنية بل هو عنصر هام من عناصرها .

الانتاج العلمي

كان من الواجب أن يمتاز عصر الثورة المرافية بالانتاج العلمي عن باقي الانتاج الذهني امتيازاً واضحاً . ولكن ذلك لم يحصل فقد بقي كل شيء عندما نعم لقد بقي الانتاج العلمي عندما لانعدام الانتاج الفكري المترتب على انعدام ذبوع اللغات ذبوعاً صحيحاً .

إن العلم لم يمد في متناول العاديين من الناس . وهذا مادعا في أغلب بلدان العالم الى وضع نظم خاصة للتدريب عليه . وتنظيم إنتاجه الدولي الأمر الذي لم يكن له أثر في عهد الثورة المرافية .

فهل لم يصبح من المستحيل أن يدرس الانسان الجهد العلمي الفرنسي
بعيداً عن الجهد الانجليزي والالمانى والايطالى؟ وهل لا يستعصى عليك التمييز
بين الجهود الخاصة والجهود القومية إذا أنت ولجت باب التطبيقات العملية ؟
ألا إن الأمة التي ضربت بسهم عظيم في تنظيم العمل هي ادنى وحدها التي كانت
تدرك النتائج الجديدة . فهل من مجهود بذلته الثورة العربية في هذا السبيل ؟
مما لا شك فيه ان الحالة السياسية والاجتماعية لبلد ما كانت تساعد مساعده
تقل أو تجل طبعاً لمجهودها في تنظيم هذا الانتاج . وتؤدى بهذا البلد حتماً إلى
أن ينال من نتائج هذا التنظيم بقدر مساعده فيه . فأى مساعده بذلها العربيون
في سبيل الانتاج العلمى حتى ينالوا منه أى قسط ؟

ومع ذلك فان كانت البحوث والاكتشافات العلمية قد لاحت نتيجة لازمة
لقوانين التطور العام ولا ارتباط لظهورها بالتطور الخاص بأمة معينة وأما ارتباطها
يكون بسلسلة تطورات علمية مستقلة تستوجب البحث عن قانون يجمع بين
هذه القوت المبهثرة في العالم . وهذا لا يكون الا بشتمهم فرض المقصود
تحقيقه من العلم . والمكان الذى تشغله المباحث العلمية في عالم التفكير . وحدود
مكانها . أى بتوحيد العلم والذقاء العالمى . فأى مجهود صرفته الثورة العربية
في سبيل البحث عن هذا القانون ؟

لقد قال رينان ضمن كتابه الخطب الذى وضعه في سنة ١٨٤٨ وأذيع في
سنة ١٨٩٠ « ان العلم يحوى مستقبل الانسانية . فهو وحده الذى يقول لها
الكلمة الخاصة بمصيرها . وسيأتى اليوم الذى لا يخضع فيه العقل المستنير
بالاختبارات المصادقات ويسير فيه تحت قيادة العلم في الاتجاه الواضح من الفرض
المقصود وستكون آخر كلمة للعلم هي تنظيم الانسانية علمياً »
فهذه الافكار وشبهاتها قد دلت على أن مهمة العلم لا تتخرج عن أن تكون

العمل على انهاء سيادة الرجل الطبيعية واخضاعها ووضع قاعدة تجرى على منوالها في الحياة العامة والخاصة . أى وضع قاعدة سياسية وخلقية . وهذا معنى قوله رينان . « فبأسم الله أسألكم أن تسلموا معى بان العلم وحده يستطيع أن يجعل الانسان من معرفة الحقائق الحية التى لا يتسنى لنا بدونها أن نتحمل الحياة . ولا أن يكون للجماعة كيان فبهذه الصفة . وتحت هذا السنار مهد العلم للعمل على التأثير . الجماعات السياسية كما مهدت الآداب . فهل كان للثورة العرابية نصيب من ذلك . حتى يكتب سيد شيئاً منه باختلاطه مع العرابين ؟ كلا . فما كان حظ العرابين من العلم يمكن من العمل على انهاء سيادة الرجل الطبيعية واخضاعها ووضع قاعدة تجرى على منتضاها في الحياة العامة والخاصة . أى وضع قاعدة سياسية خلقية . يتسنى له بموجبها أن يعرف الحقائق التى لا يمكن بدونها احتمال الحياة أو يكون للجماعة كيان ولا سيما باعفاء الأكناء . وهذا الجهل هو مادفع مسدداً الى أن يجهر فى مجلس النواب فى قبة تمبير ودعامة تفكير بأنه لا يعرف معنى للجماعة ووزارة المعارف قائلة .

ماهو الرأى العام

ليس الرأى العام هجرة من الصيحات والصخب والنشوية والجلبة والنهيق والنهيق والآلام والحسرة والبكاء والنحيب والدوران واللف . أو الركون حول النفس والغاية والشهوة . وإنما هو مجموعة مثرات كامنة فى حركة فكرية علمية أدبية فنية اقتصادية مألوفة صناعية زراعية تدوى صيحاتها فوق المنابر وعلى جدران المنازل . وفى داخلها . وداخل المدارس والجامعات . وفى أنهر الصحف والمناجر والمصانع وفى بطن الارض وجوف السماء وفى أغوار الماء وعلى سطحه .

ليلا ونهاراً ويعتمد شعاعها الى ما وراء البحار ينافس وينافس في مختلف الاسواق .
ولهذه المؤثرات قوة مغناطيسية تجذب القلوب الى الامام ودائماً الى الامام . ولها
نور يهدي هذه القلوب ويظهرها ويشفيها من الامراض فلا تمتورها حتى ولا
يقنابها جود ولا ألم . كان الخطر ومهما اشتدت الصدمات والنوازل . فهذه وجدت
هذه المؤثرات في أيام شباب سعد . أيام الثورة العربية ؟ إن ما قدمناه يدل في
وضوح على انعدام الرأى العام الصحيح . ويثبت أن الثورة العربية كانت في
نهايتها ذبحة صدرية أزاعت بهر القادة وتركهم في أماكهم جامدين حيارى
وعن شئون الوطن لاهين . لا اختيار لهم . ولا حرية لارادتهم . ولا نفهم لحقيقة
موقفهم . فمن أين كان لسعد ما يطعمه في شبابه بطايع الأحرار والمفكرين
والمجاهدين الراسخين في علم القيادة والسياسة والفراسة . وما كان وسط
الازهر العلمى الذى تجرد من التبجر في الرياضة والجغرافية والتاريخ والفلسفة
والاجتماع الخ يؤهل واحداً من طلبته في سنة ١٨٨٠ ليكون زعيماً سنة ١٩١٩
وما بعدها . ولا سيما بعد أن احتضنه الانجليز نيفاً وثلاثين عاماً طبعوه فيها
بطابع الذلة والاستكانة واحتقار الذات ؟

هل كان سعد رجلاً سياسياً ؟

بحق لنا بعد الذى قدمنا أن نبحث فيما اذا كان تكوين سعد وفاق غرائز
الشيخ ابراهيم زغلول والوسط الازهرى والبيئة العربية وابتماده في بادىء
نشأته عن الوسط الراقى رقيقاً عصرياً مما يساعده على أن يكون رجلاً سياسياً صالحاً
لأن يتزعم على مصر في سنة ١٩١٩ ؟

ان بحث هذا الموضوع يتطلب كلمة أولية عن رجال الثورات القميلة .
وكلمة تمثيلية عن تفاسد الطبيعة على الوسط ساعة الخلق أو انطلاق اليد بعد
حجر وأسر واعتقال روح .



رجال الثورات المشهورة

كان سعد من رجال الثورة العراقية . والثورة العراقية اخفقت . وكان من الواجب أن تخفق لأن رجالها لم يكونوا أهلاً لقيامها فهل من يخفق في ثورة يصلح لأن يقود ثورة أخرى ولا سيما إذا صادق عدو البلاد والمخروط في سلكه خدمه خلال حيل ؟

لقد أثبت التاريخ أن فشل ثورة نهائياً يؤدي حتماً إلى اشتراكها فيها إلى عجزهم عن القيام بأخرى أو قيادتها على أحسن وجه . وهذا قانون نفسي لا منازعة فيه ولا شك بعد أن أصبح علم النفس هادياً في الحكم على الرجال وصلاحيتهم للأعمال التي تناسبهم قوة الإرادة وقوة الخواص وقوة العقل .

إن فقدان الصلاحية للقيادة لا يترتب على فشل الثورة أو العمل المجهد فحسب . بل هناك طول الانتظار والمادة والتطلع كلها مؤثرات في النفس تدعو إلى اليأس والقطوط وخور العزم . وإذا شئت أن تتأكد من هذه الحقيقة فأتل مثلاً صحيفة ناليون قبل نفيه إلى جزيرة الباء وبعدها أو قلب صحفاً أخرى من صحف الحزب الجمهوري الفرنسي بعد ثورة سنة ١٨٣٠ . وهي ثورة أهلية لم يرد بها احتلال قوات أجنبية ولا ارتقاء زعمائها في أحضان عدوهم .

لقد خلا الملمان الفرنسي من الجمهوريين بعد أن صدر قانون يحول دون ترشيحهم . ولكن إذا كان هذا المجلس قد تجرد من ممثلي هذا اللون السياسي فإنه قد اشتمل على متطرفين ديمقراطيين . فضلاً عن أن دعاية الحزب الجمهوري كانت متتابة بلسان « القاموس السياسي » والمجلة الجمهورية « لدوبون » وممارسة « ومجلة رقي للويس بلان » وصحيفة الناسيونال .

كان الحزب الجمهوري قد انضم عقب وفاة جازينييه بأجيس الكبير سنة

١٨٤١ . وكافينياك سنة ١٨٤٥ والسحاب نربلاوراسباي . حتى لقد تسرب إلى
 اليأس إلى قلوب أشد الجمهوريين حماسا أمام حكومة طال أسدحكما وأدى الأمر
 بالجمهوري د اراجي في سنة ١٨٤٤ إلى أن يقول لنا خبيث . « اصرح بأن
 الحكومة الاستورية الملكية الوراثية هي الحكومة الوحيدة التي أرى أن
 في مقاسورها أن تغرس في فرنسا جذورها وتوأتى ثمارها . واضطر هيجو لم
 كاريس في سنة ١٨٤٦ إلى أن يصرح بأن الحلة الانتخابية نانه مخلص للنظام
 الذي أنشأه الدستور المنحة . نالهم بذلك رأي والده الذي كان جمهوريا ولم
 يتأخر عن قبول النظام الامبراطوري استراما لارادة الامتعة و . سبيل حب
 بلانك . انتهى به الأمر في سنة ١٨٤٧ إلى أن يصدر منشورا تحت عنوان
 « المتطرفون والدستور المنحة » أسن فيه « أن الدستور المنحة لا يعطي الرق
 « ليه فراطى بها أنه لا يهوى أى تقدم . سواء أكان في سبيل الإصلاح
 الانتخابي (من طاعة تقدير الانجليزية وانقاص الضريبة والانتخاب المباشر من
 درجة أو درجتين) أم في طريق مختلف الحريات الفردية الحاجة بالصحافة أو
 التعليم . أم في سبيل المسؤولية الوزارية واختصاص الخلقين . . . انتهى من
 هؤلاء الذين كانوا يرجون في سنة ١٨٣٠ قيام الجمهورية ولكنى لم أكن من
 هؤلاء الذين لا يرضون إلا بالثورة من أجل الحصول على كلمة . فالمتطرفون كانوا
 إذن يريدون أن تكون الحرية تامة لجميع الآراء . وأن تكون الملكية هي
 الحكم عند الضرورة للفصل بين السلطات ومنح الحق للغالب من الاحزاب
 واسناد السلطة التنفيذية له « فالحزب المتطرف كان يرى في الدستور المنحة تحقيق
 كل ما يريد وما عليه إلا أن يساعد كل حزب يدهو إلى الإصلاح الانتخابي
 وبنيان الخلق السياسى .

وقد اتخذ الحزب المتطرف صحيفة « لاريفورم » لسان حال له . وادارها

« لدرورر لان » وهو محام فاز فوزا ساحقا في مانس أثناء انتخابات سنة ١٨٤١
 ولقد حوكم أمام محكمة الجنايات لنشره خطابه الانتخابي في صحيفة « كورييه
 ده لاسارت » حيث قال لنا خبيه : « إن الشعب قطيع من الأغنام يقوده
 بعض الممتازين مثلي ومثلكم . ويطلقون عليهم اسم الناضجين . . . وإذا نهض
 هذا الشعب ليطالب بحقوقه التي أجزأنا في غيابات المسجون . وإذا هو
 جمع صفوفه حتى لا يسحقه الشقاء وتقضى عليه النعاس أو دافع عن أجره
 الذي لا يمينه على سد حاجته الحيوية زج به في ظلام الرنازين . وإذا هو
 كتب على أعلامه « قطعة من الخبز أو الموت » كما حصل ذلك في مدينة ليون
 أثناء الثورة عليه المقد وقات النارية . وانتهكت الجنود حرمان ما تبعثر من
 هشم رقاته . ولكن الشعب هو السيد . ولقد أمم حملة شعار الحرية بهذا
 الاسم أيضاً . جزاء ما أذاع من دين شرعه على أسنة وراح المساواة والغاء
 أن الشعب مسبح اليوم فإذا نصنع لبعثة لا ماص لنا من الإصلاح . فهو
 الشرط الأساسي لكل رقي سامي . فليكن إذن كل وطني ناخباً . وليس في
 المقدور أن يقوم نجدد إلا إذا نهض نحو إصلاحات صادقة صحيحة . فالحزب
 الديمقراطي قد امتاز على الخصوص بهذه الناحية السامية القائمة على حب الشعب
 امتيازاً عظيماً يفوق امتياز الأحزاب التي تخضعها ثورة بولية سنة ١٨٣٠ .
 فالشعب ليس له وجود في النظريات الملبسة بالانانية . — إن الشعب في نظرتي
 بمعنى يدوسه « يهشمه تحت أقدامه كي يصل إلى غايته وكذلك حزب «ارو»
 إنه لا يهني أيضاً بالشعب . أما حزب « المشروعية » فإنه يتكلم من سيادة الشعب .
 ولكن الشعب يرتدي جلد الاسد » تخكم عليه أربعة أشهر وثلاثة آلاف
 فرنك غرامه ثم صدر حكم محكمة النقض والابرام براءته .

ولقد أعلنت هذه الصحيفة أنها الاسان الناطق بنوحيد جميع العناصر

الديموقراطية ولا مبدأ لها إلا تطبيق سيادة الشعب؛ دراسة الزراعة والصناعة والتجارة والعمل على إرضاء الطبقات العاملة . وتعليم الأهالي واحسانهم وتبيان حقوقهم . وتذكير الشعب بأن مصالحه الحقيقية تفرض عليه توحيد الصفوف . والتأخي .

أما الصيغة التي أراد «لدورولان» أن يجمع حولها صفوف الديموقراطيين أمثال (انيس اراجو) و (لويس بلان) و (جعفر واكافنيك) و (كرميون) و «فلوكون» و «بيرلو» . الخ - حتى ينضم اليهم الشعب فهي « مبدأ الإصلاح الانتخابي على قاعدة الاقتراع العام » وهو مبدأ قديم سبق أن قال به كافنيك و لويس بلان في هذه الصيغة: « إن الإصلاح السياسي شرط أساسي للإصلاح الاجتماعي » وهذا هو الميدان الذي يتلاقى فيه الجمهوريون والاشتراكيون لقد توارت مهمة الجمهوريين ردها من الزمن . إلى أن جاء اليوم الذي نجحت فيه جهود الخارجين على حزب المحافظين مع المعارضين للأسرة المالكة . من أجل النضال والعمل . وحشد القوات الخائفة وعموئها بمناصر جديدة من الشباب الطاهر . وفي ذلك اليوم أمد الحزب الجمهوري (هذا الحلف) القائم على سحق المبطلين والمستضعفين والهازيين بحقوق الشعب رجال عديدين ذوي أقسام وحزم وعزم وكفاية تؤهلهم عند الضرورة للقيام بالعمل الحاسم .

وفي الواقع كنت ناس في الوجود تقليداً . بل ناس ايماناً أو ديناً جمهورياً هو ذلك الذي اعتنقه شباب يوليو سنة ١٨٣٠ . وهو دين استمد قوه رهيبه من حماس نظرية العواطف ازوائية المتأججة في صدور الشعراء والفنانين كما استمد هذه القوة من تفجر الشهور بتقدس الشهداء الذين راحوا ضحية المعصيات الاخيرة واحكام المحاكم أو قضوا باقى حياتهم في السجون تنفيذاً للنظام البشع

الذي أتبع في إطفاء العصيان الذي وقع في سنة ١٨٣٩ . لجميع هؤلاء الشباب والرجال والشيوخ كانوا وهم في اجتماعاتهم السرية العجيبة التي عقدوها في مغاور جبل سان ميشيل وغيرها يستوحون إله الرقي والتقدم ويفرحون إليه أنه يسد خطاهم في سبيل الخلاص وان يؤيدهم بروح من عنده حتى يحققوا الاخاء والمساواة.

تحالف الاحزاب

كانت الحكومة الفرنسية قد بدأت تعطف على حرية التعليم . ولكنها فشلت في هذا النوع من التحرير الفكري . ولذلك فان أعداء الرجمة . الماتة في ملك خيل فسدت حاشيته وتهدمت أخلاقهم . قد رأوا أن خير وسيلة للاصلاح انما في تعديل قانون الانتخاب والدستور تمديدا يقضى قضاء مبرصا على حكومة الفرد والرشوة المتفشية في فروع الحياة الفرنسية .

لم تكن فكرة التوسع في حق الانتخاب العام حديثة . فبذل العمل بقانون ١٩ أبريل سنة ١٩٣١ قام الاحرار بمقاومته رغبة في سحق قيوده . فرجاله حزب الامرة المالكة القديمة قد اقترحوا تخويل هذا الحق لكل داغم لانهاب الصربية قيادتهم في دفتر الانتخاب من نظام وبلغ من العمر ٢٥ سنة . وقد أيدت صحيفة « غازيتة فرنسا » وصحيفة « لافير » هذا الرأي . ولكن الصحيفة الاخيرة لم تسكن منتشرة . أما جراءة الصحيفة الاولى فكانت ومسيئة للمزايمة لم تلج عليها شارة من شارات الاخلاص .

وقد كان الانتخاب العام المباشر المسمى جزء من برنامج « جماعة حقوق الانسان » وانما كان ذلك لغاية نبيلة هي استئصال الفساد . وإبعاد النائب عن أن يكون كما قال « تيليه » : « سمسار دائرته الانتخابية » . إذا حضر جلسات

المجلس فأنما ليتناهب . وإذا انتهت الجلسة هيأ نفسه لاداء مهمته . وهرول من وزارة إلى وزارة لأنجاز مطالب ناخبيه »

ولما جاء عصيان سنة ١٨٣٩ . وتكرر التأمر على حياة الملك خشى أنحرار الطبقة المتوسطة أن ينحاز الشعب إلى الفكرة الشيوعية . فتصدى بعضهم لاقتراح تمثيل انتخابى يقضى للشعب بأمل التدرج فى الاشتراك فى الحكم تناديا من الشيوعية . فلم يلح هذا الاصلاح هنا انه وسيلة من وسائل الهياج أو الخيال الواجبة الالهال . وإنما اعتبر واسطة تؤدي إلى توثيق عرى الوفاق بين الشعب والطبقة العالية . ولقد جاش إذ ذاك فى قلوب القادة أمل ظامض هو أن يكون المران على الديموقراطية وسيلة إلى ابعاد الروح القومية من تاليف أحزاب الطبقات . وباعنا على اجتناب فضالها . وممهداً للإمة بأسرها سبيل الرقى السياسى والرقى الاجتماعى .

فالهباج الذى نظمه الحرس الوطنى إبان عصيان (سنة ١٨٣٩ — سنة ١٨٤٠) فى سبيل الاصلاح الانتخابى . وفوز لدرو رولان فى سنة ١٨٤١ كنا مظهرآ من مظاهر المقاومة لتلك الفكرة القذرة التى حلت فى مجلس النواب وأدت إلى ازدواج حكم الفرد بالرشوة فوق المقاعد النيابية المقدسة .

كان جنزو والملك لويس فيليب هادئين أمام حملات الممارضة القاسية . فلما مضى لهما لهما حملات هتيممة جاءت فى وقت غير ملائم . ولقد تصورآ أن احترام الدستور لا يكون إلا فى انحياز أغلبية المجلس لهما . ومما لاشك فيه أن لويس فيليب بعد حكم استمر عشر سنوات قضاهما فى العبر والخناوع قد وصل إلى أن يحكم بنفسه وبواسطة وزيره جنزو . حكما يرى معه أنه لم يرتكب ظلمآ يستحق عليه التعنيف . ولكن هذا الملك الذى أفلت من أيدي عشرة من اللقطة . وفل غارب المصيانات العديدة . وعرف كيف يستخدم ويدل هؤلاء

الذين ظفروا بإحلاله محل شارل العاشر عقب ثورة يوليو سنة ١٨٣٠ . قد خال نفسه معصوما من الخطأ السياسى .

لم يقلق بال الملك أمام هجمات الصحافة الفرنسية وحسبها إياه . بل كان مطمئنا كل الاطمئنان . وذلك لأنه ما كان يقرأ غير صحيفة التيمس الانجليزية وكان واثقا من أعجاب أوروبا به . ويقدر ان السلام العام الاوروبى انما جاء غرس يده . لذلك أبى أن يفكر فى تغيير طريقة حكمه وفى تأليف وزارته . حتى لقد صرح لمونتاليفيه بعد أن صارحه بخطر الموقف الذى سببه وزراؤه وسياسة حكمه قائلا : « إنك تريد حرمانى من جيزو . ولكن هذا الحرمان ليس إلا انزعاف لسانى من حلقى »

قاوم الملك كل نصيحة . وأبى الاشتراك فى أى عمل يقلق راحته . حتى ما كان منه متعلقاً بداخلية أسرته . ولذلك ساد اللبلاط خلال سنة ١٨٤٦ ذلك الخطر الذى شعر الناس بأنه يحيق بالملك من جراء الضغط على وزيره والخنق على نظام حكومى مشغوم . ولكن رجال اللبلاط عجزوا عن أن يقيسوا مسافة الخلف بين الشعب والملك مع أنها كانت تتسعاف طولا وعمقا من يوم لآخر وقصروا عن أن يدركوا أن فرنسا الادبية والسياسية أصبحت بمهزل عن حياة حكمها غير مكترثة على الاطلاق بمرشها ولا آبهة بمستقبله لما فى أعمال الحكومة والىواب من افتئات على أقدس حقوقها

ومن هنا يتضح الاثر النفسى الذى يحدثه الاشتراك فى ثورة يقضى عليها نهائياً بالفشل كما يتضح أثر طول الانتظار فى الجهاد . فإما ل أثر الاشتراك فى ثورة خاسرة يعقبها تعاون مع العدو وساهمة فى توطيد أقدامه . وعمل على تنفيذ برنامج هذا العدو دهرأ طويلا كما كان شأن سعد ؟

تغلب الطبيعة على الوسط

عو أننا نستطيع أن نفرض جدلاً أن وسط تمرايين كان من أرقى أو ساطق خلق الله . وأن سمداً لم يتم و أحضان الانجلىز طوال جبل من لزم تكون فيه شكل خاص . ونسأل ماذا كانت تكون . الآثار المترتبة على جبلته وغريزه الجوهرية التي انتقلت اليه من والده العمدة ؟
لقد أثبتنا علماً بما تقدم أن هذه الفريزة لابد وأن تسكشف في يوم ما إذا ما أخرج الإنسان أو استثير أو أطلقت يده بعد حجر وأسر . وهنأرى أن التمثيل أفضل في النفس وأفضل في إقناعها بالحقيقة

تليبير

قال لنا المسمى هنرى هـ سبيه عضو الاكاديمية الفرنسية في كتابه « أثينا وروما وباريس » (ص ٤٠٠ وما تلاها طبعة سنة ١٨٧٩) : « إن الخاف يصدر احكاماً نهائية . ولقد برأت عدلة الاجيال الامبراطور أغسطس الذى سما بالدم وقضت على تيبير الذى سقط بالدم . ولا قبل للاماجيب المتفرقة عن أشجذ المبريات وأقواها حجة على أن تنقض حكمها . وليمر المسمى « بوليه » بمقادير على ذلك وهو الذى أراد بدراسته تيبير أن يرد الاعتبار الاسم إلى خليفة أغسطس ورائد الطريقة التي اتبعها مونتسكيو ، وهو يقارن بين تيبير ولويس الحادى عشر حتى ختم المقالة لمصلحة رجل روما ولكن « بوليه » قد أيد رغم ذلك نظرية جذابة . هي « أن القضاء والقدر الذى أثقل كاهل أبطال المأساة الاغريقية القديمة قد أبهظ منكب تيبير إلهافاً أشد . وهذا القضاء والقدر هو التركة التي خلفها أغسطس » وبعد أن شرح المسمى « بوليه » أخطار السلطة المطلقة التي تحيق بمن ينشئونها طفق يدال على صحة رأيه في برهان فاقت فصاحته قوة

اقناعه . فقد ذكر تمييز طفلا وشيخاً . وكهلاً ورجلاً . وصورة امامة او فناء آ
وقائداً للجوش وذليلاً منقاداً لسلطان أغسطس . وقنصلاً وأمه راكوزاً .
وقاسياً في أحكامه بعد تنويجه وظالماً مجنوناً ووحشاً ضارياً قبل موته .
ولقد تتبعه في أسدانيا وجرمانيا وفي رودس وبرونيا وفي الفوروم وفي جبل
بالانان وفي حدائق موسين ومغاور جزيرة كابريه . وفي كل مكان . وفي كل زمان
وفي كل مناسبة ظهر فيها تمييز فريسة سلطانه .

« ومن الواجب أن نناهض نظريات المسميوي بوليه بالأسلحة التي يقدمها اذا
كتابه . انه يقول : « لقياس الاثر المترتب على السلطة المطلقة ورجل مفروض
فيه ان السلطة انشأته أميراً موهوباً ذا ذكاء واسم . حازماً مثقفاً . مستعداً
من جنس عظيم سما تكوينه العقلي والبدني . ونخلق بخلق نادر . واستكمل
صحة لا يخطئ في السها المضمضم وكان جندياً اسلاً وقائداً ماهراً وادارياً حكماً
تخييط به حاشية طيمة . وتؤيده نصائح أمهر الامهات وأمكرهن . ونشد الخطوط
أزره في أغلب الاحيان . يندفع بلا جهد نحو العظمة . وتبنت حياته الاولى
بجانب السلطة المبالغة . ثم زاو لها عملياً . ثم عدل عنها ثم استولى عليها في سن
النضوج وانتهى به الامر وهو في سن السادسة والخمسين إلى أن ساد العالم .
فاذا كان هذا الرجل قد فسد شيئاً فشيئاً . وخار رويداً رويداً . ثم تحول حتى
أصبح في يوم من الايام ملموناً من الانسانية . وموضع كراهيتها . فان المثل
يكون حاسماً والبرهان التفصيلي يكون كاملاً » نعم ان البرهان كامل .
ولكن المثل ليس حاسماً . إذ يمكننا في سهولة أن نقابل مثل تمييز بمثل يناقضه
تماماً . وهو مثل سلقه أغسطس . فاذا كان حقاً أن تمييز قد فسد تدريجياً
وتحول حتى أصبح ملموناً من الانسانية وموضع كراهيتها باستخدامه السلطان
المطلق فكيف يكون « اكتافوس » بزاولة هذا السلطان المطلق نفسه قد

صاح تدرجياً ونحول حتى أصبح أبا الوطن ونموذج الملوكة ؟ فهل السلطة المطلقة كذلك الينبوع الساحر الذي تحدثت عنه الأفاقيين القارسية ومن شأنه أن يهب الطبيعة الأبدية أو المرض الفضال تبعاً للاستحمام فيه عند شروق الشمس أو غروبها ؟

ومع ذلك فهل تمييز كان قبل تنويجه الرجل الكامل الذي زعمه هذا المبرهان ؟ ان التاريخ ينكر ذلك ، اما ان تمييز كان على وسعه من الذكاء وعلى تسكين حسن عقلا وحسنا . وشجاعا وقائداً ماهراً فهذا ما سلم به . ولكن هذه الصفات لا تستلزم أبداً أن تقتزن بقيمة أدبية . ولا بكفاءة أساسية لحكم العالم . لقد انحدر تمييز من جنس عظيم . ولكن أسرة آل كلرد قد اشتملت على الابن الرحيم ، والشیطان الرحيم . فمنهم من أثار حماسه لرومان بعد أن دحرهم بيروس . ومن طرد جنود فرطاجنة من صقلية . كما كان منهم الوحش الذي قطع الصلة بين مجلس الشيوخ والشعب . ومن حاول مستعباد إيطاليا . ومن فقد أسطوله . ومن نفى شيشيرون وأجرى الدماء في شوارع روما . فتمييز الذي كان إلهه الشيطان الرحيم كان في وسعه أن يقدف في سبيله . فهل كان اداريا ماهراً ؟ من السهل أن نقيم الدليل على العكس إذا نحن أئبنا ان يده لم تتدخل في جميع الإصلاحات والتجديدات التي تمت أيام حكمه . ولا في التوسع في تطبيق قانون الاعتداء على مسند الملك وجعله شاملا الاحوال السياسية بعد ان كان قاصراً على الشؤون الدينية الخ . الخ . وانما هي اقتراحات ليفيا وميجان التي أدت الى كل ذلك . بل هي اقتراحات ليفيا على الخصوص تلك المرأة التي كانت بمثابة كاترين ده ميديسيس الرومانية . بل انهازت اللورانتية . وكان لها أكبر الاثر في نفس أغسطس و تيمير . واستمر نفوذها كذلك في الحكم الامبراطوري بعد أن أسست الامبراطورية . ان ليفيا كانت الشيطان المؤسس

للمبدأ القيصري . والثورة الساحقة الماحقة للنظم والحريات الجمهورية .

فإذا كان تدمير قد أظهر بعض الخلال الحميدة في أول فترة من حياته فلان الخوف من أغسطس وليفيا قد كبح جماحه . ولما سكنه عند ما شدد بالحرية أطلق الننان رذائله ونقائضه التي اعتقلت طويلا . والحرية لم تأت إليه إلا في آخر أيام حياته .

فعندما خلف أغسطس لم يتغير الحال إذا التغير انحصر استبدال سيد بسيد آخر . فقد سل تحكّم فيها المتهمّة محلّ عبادة أغسطس . وإذا تبيّر لم يكن براء . ولم يحكم بنفسه إلا بعد موت أمه . وبعد القصاص من عشيقها الفادر . ولا تكن آخر أيام حكمه . وهي الأيام التي امتازت بأوراق الدماء اوراقا عظيما وتلطخت بأجمع حار . كانت أيام حكمه الخاص .

فالمرأى الجنونية . وأحوال الفعش في جزيرة كبريه . هي من فماته الخاص ولا دخل لأي كان فيها .

فهذا الرجل الحسود الحقود الجبان المنافق المتردد . الوضع في نزقه المتجرد من القوة بقدر تجرده من الفضائل الادبية . هذا الكلب الذي خضع لأغسطس في ندالة . وتحمل في أناته وصبر وذلة فخس زوجته . وقسوة الامبراطور والنفي الى رودس ظله . ورصد يمينه . يمين القائد على خدمة امبراطور لوث شرفه بالاختلاط بجزيريا . وكان في الوقت نفسه يقسو عليه . وهذا الظالم الرهيد الوحش الذي كان يكبح جماح غلظته ووحشيته . وشهواته الغريزية وكثيرا ما كان يشعر بنير ليفيا وسيجان قد أسرع بعد موتهما الى الاندفاع في هاربة من أحوال الجرائم والفعش تاركا الحكومة . نابذا مجلس الشيوخ الخالي من نصف أعضائه . لاهيا عن تعيين قواد للجيش المتطوعة . وحكام للاقليم . ساهيا

عن الدافع عن أرمينيا ضد البارث . وعن ميزيا ضد الداس . «ع» الحول ضد
الحرمان هذا الوحش المتأنق في بربريته كانت يرغم الحلالين على استلاب
عفاف المذارى قبل اعدامهم . واذا انتحر سبعين حنق لا ماسى وسائل
اللعنذيب الامراطورية المبتكرة صاح : « لقد فرمنى كـا . لبرس » فهل هذا
الرجل يبرر قول المسبو « بوليه » : « أن تبيير لم يكن وحشا . ان تبيير كان رجلا
مثلنا . وموهوباً كثر منا » ؟

ان عظماء المجرمين يستطيعون أن يبرئوا أنفسهم في سهولة كبيرة اذا هم
استخدموا كلمة أثقال الماضي التي تذهب جفاء وفي لمح البصر أمام كلمة عقل .
واذا نحن ثلونا خاتمة كتاب تبيير . لوجب علينا تواء أن نفكر في ابني فسيبازيان :
تيتوس . ودومينيبيان . اللذين عاشا زماناً واحداً ورباهما أستاذ واحد وكان
كلاهما ولي عهد مباشر أعد ليحكم شعباً واحداً . ومع ذلك فقد امتتحق كل منهما
أن يلقب بلقب مختلف عن لقب أخيه . فتيتوس قد لقب « بهجة النوع الانساني »
وأما دومينيوس فلعب « طار الانسانية وموضع مقتها »

فكرة أغسطس ليست هي التي جعلت من تبيير ظالماً ممتقوتاً . وإنما طبيعته
الوضيعة الحقود القاسية . حتى لقد قال فيه تاسيت قبل أن يعرف ائقال الماضي
« وفي النهاية قد تردى في الجريمة والعار مما في وقت واحد عندما زاول طبيعته في
حرية وأبعدت عنه وسائل الجريمة والعار »

فالخرقة إذا ما أنطلق عنانها أو استثيرت وأرتفع الرماد الزمنى من فوقها .
تجأت بمظهرها الحقيقي . وانضح جوهر الجنس في عملها . أما مفعول الوسط .
أما التريبة فهي كما قدمنا « وسيلة صناعية في مبدئها . تخلق فينا طبيعة
ثانية تلوح في نظرنا أنها امتصت الجوهر . وجبته . ولكنها لا تصل إلى هذه
القوة في أغلب الاحيان . فكم من رجال تحلوا بهذه التريبة ولكنها لم تجتث

غير نراهم . فهي أذرى ليست لإدماها لما يطيبها فتمينا عند أول صدمة . لظهور الطبيعة
الاصيلة بنهمها وروحشيتها . أو قناعتها وفضائلها . ولقد يدهش الانسان
أحيانا من أن يرى شعوبا بلغت أقصى حد في المدنية والوداعة والانسانية
والخير أبان سيادة الامم ثم هي لا تلبث أن تنقلب عقب اعلان الحرب أو عند
اصطدام مصالحها بحقوق الضعفاء وحوشا كاشرة . تهبط إلى آحط دركات القسوة
والوحشية . ولكنه إذا فكر مليا وعلم أن الحرب ما هي الا هود لمبدأ
الظلمة . وسيادة الحمجية والوحشية . وما وظيفه هذه الحالة إلا ان تبعث تلك
الطبيعة البشرية المتلاعبة معها . والسابقة على أى ثقافة ونحرجها من إمكانها في
حماسها . رباطولتها . وعبادتها للقوة والمطامع الاشعبية ولذلك قد حن قول
كارل بل : « ليست المدنية إلا غلافا لستر طبيعة الانسان وهي تحترق بنار جهنمية »
وهكذا كانت حال سعد . فهو يهدأ ويستسلم إذا ما عجز . ويثور إذا ما اشتد
وقوى . . أما إذا أغضب وهو في قوة فانه كان الليث يعتدى ولكن على العزل
والضعفاء . واستسلامه واضح في مفاوضاته . وثورته ظاهرة في معاملته معارضيه
فشرزته هي التي تتحرك رغم الطوائع المكتسبة . ولا تتحرك إلا إذا نعم وتحرر
من أى قيد . فشعوره بالحرية أطلق العنان لذائله ونقائصه التي اعتقلت طوبلا
والحرية لم تأت اليه إلا في آخر أيامه التي هوى فيها بالامة الى درك من الاستهانة
بالحقوق وامتهان الكرامة ولا دخل لا تقال ماضي الامة في كل ذلك .

نيرون

إنك إن قلبت أى صحيفة من تاريخ نيرون تدفق منها الدم حتى خنقك . فلا
تعد تبصر إلا أحر . ولا تسمع إلا استغاثة . ولا تسمع إلا تنأ ولا تحس إلا
جهوداً وتحجراً . ولا تذكر إلا كلمة لا منية : والآن التاريخ لأطول محضردون
فيه تهذيب الانسانية »

وتعتبر أعمال هذا الخليفة، والممثل المضحك الوضيع الذي حمل فوق رأسه تاج روماً قد اتجاؤا المؤرخون إلى السنسطة التي أسندوها إلى أفلاطون حيث قالوا « إن الجرائم التي امتارت بالامتنبال والوحشية لا يرتكبها رجال من ذوي العقول بل تنسب على نفوس قوية كريمة أفسدتها التربية . » فهم إذن يستندون على الناحية الطبيعية لآبن « أجريين » . وهي طبيعة أفسدتها تربية ممقوتة ثم يمشيرون إلى ما أحدثته السلطة المطلقة من عمى ذهول عن الصواب . ويندكرون سبب وجود الدولة ذلك المعبود الجامد الذي ريد التضحية عنه طريق قيام الجازري كل ناحية . ثم ينتهي بهم الأسى إلى أن يلقوا بتمه جواسيس نيرون على مستشاريه . مثلهم في ذلك مثل خصوم أغسطس وحساده الذين يفتنون كريات أعماله إلى استكارات وزرائه . ونقداه تمدهولاً المؤرخون أيضاً في كلام فائساي الذين قل وضعه لتأييد حل القضاء « القدر الذي أبهظ كاهله . وهذه السكاه هي « لآلد أنا وأجريين إلا وحشاً »

لقد دال نيرون بأعماله على صحة نبوة والده . ولكن هذا الوالد لم يكن حقاً في التنبؤ بها . لأنه إذا كانت أجريين زوجه بنت جرمانيكوس هي التي قال عنها ما في كلمته من معنى . فليس هناك من سبب يدعو إلى أن يكون نيرون هو ابن أجريين دون غيرها . ومع ذلك فإذا كانت الفضلة فضيلة جرمانيكوس قد ولدت الرذيلة . رذلة أجريين . فلماذا لا تلد الرذيلة فضيلة ؟

أما فيما يتعلق بتربية نيرون فقد وجب أن نتحرى الحقيقة حتى نعلم ما إذا كانت قد ساءت بالدرح التي أشير إليها ولد للمؤرخين وصفها أم لا ؟

إن نيرون الذي انتزع منه كاليجولا ميراث والده قد بقي إلى سن الماشرة في حضانه عمته « ليبديا » دون أن يعهد بأمره إلى مرب أو أستاذ غير حلاق ورقاص ولقد عوده مدس « ليبديا جوجيان » حياة المواخير وملذات منارلة الوحوش في المسارح حتى انطبعت تأثرات الطغولة في أعماقه انطباعاً قاسياً . إذ احتفظ الأمبراطور نيرون بأذواق ابن أجريين الصغير .

فالمائدة ومسرح الوحوش بقيا أداة لهواه ومسرته. واستمر ظفروه الذي أبعد مطمح وأقصى مطمح. ولكن هذه التربية التي تعلقت بالرياح والمصادفات قد انتهت بزواج اجريبين من كلود. وفي سن الحادية عشرة كان نيرون استناد جديد هو الفيلسوف سينيكا.

فهل كان هناك أ كفاً من سينيكا تهذيب قيصر الفد وتكويته واعداده لممارسة السياسة ؟ وهل كان محققاً ذلك الذي قال ان تربية طفل على يد هذا الفيلسوف كانت تربية فاسدة مشثومة ؟ ان معلومات نيرون كانت تنهض دليلاً على عكس ذلك . فقد كان على أتم تثقيف وأكمل تعليم . مولعاً بالفنون . مغرماً بالأدب . حتى رأيناه في الخامسة عشرة يرتدى ثوب الحماما ويترافع باللاتينية عن البولونيين . وبال يونانية عن سكان رودس وترواده .

واذا نحن صدقنا تقليداً من التقاليد الرومانية علمنا أن الرومانيين قد أسفوا على نيرون وهم يذكرن أمداً طويلاً لنعمة الخمسة الاعوام الاولى من حكمه حيث ساد الهدوء . وسمت العظمة . ولكن هذا التقليد لا يشرف الرومانيين فاذا كان الامبراطور الجديد قد وعد بأن يسلك سنة أغسطس ويحتذيه مثلاً في أعماله . واذا كان قد رفع عن عوانتهم شيئاً من الضرائب . وسن قوانين تحم الاقتصاد واجتناب الترف . واذا كان قد طاون أعضاء مجلس الشيوخ الفقراء بماله الخاص ونفذ مشروعات عظيمة في المدينة . واذا كان قد أمضى حكم اعدام وهو يقول : « لقد كنت أريد أن لأعرف القراءة والكتابة » فان كل ذلك لا يمكن انكاره ولكن يجب أن لا ننسى ان أول عمل من أعمال حكمه كان قتل سيلا نوس ولا جريرة له إلا أنه من أقارب « كلود » وبعد ذلك بأقل من عشرة أشهر أمر بأن يتمجرج برينانيكوس السم أمامه . وهو شقيق

زوجه وابن والده بالتبني وصهر والدته . ورفقه في الطقولة . وقبل أن تنتهي
الخمس السنوات الاولى من حكمه كان قد أعدم أمه أجريبين . فهذه السنوات
الخمس قد بدأت بالقتل ونهت باستباحة دم الام . وهذا هو مجده هذه الفترة
لم يكن قتل أجريبين بول خطوة قطعها نيرون في سبيل الاجرام . ولكنها
كانت أجسم خطوة وأبشعها . فبذمأساة « ناي » لم يعرف نيرون أى قانون
ولم يعترف بأى قانون ولم يخضع لأى احساس انساني . وبلوح انه ذعر من هول
هذا الاثم الغالب . فارد أن يحو ذكراه بارتكاب آثام جديدة لنذهب ذكرى
احداها في طيات ذكرى الاخرى . ففعل يده التي لوئتها دماء والدته في بحر
مسجور من الدماء . وهكذا بدأت سلسلة فواجع نيرون . وهى مأساة قامت على
قاعدة : « من اقتل فاذن أحكم » . ولقد اعدم اربعمائة عبد يرى في يوم واحد .
وسم يروس . وذبح سيلا وبلوتوس . وخنق البائسة كلوديا في حمام ساخن
بعد أن طلقها واتهمها بالزنا . والتي الى الوحوش قطعها من المسيحيين . واستخدم
ثلاثة آلاف شهيد . كفنوا أحياء في ثفافات دهنية في إضاءة شرفته المسرحية .
وعذب الممثلة المضحكة ابيكارليس حتى ماتت . وطوح برأس لاتينوس . وانتحر
بنزون وسينيكا بقطع الوريد . وقطع عنق سوبريوس . وسوليبيوس . واسبر
وكنتيانوس . وسيفينوس . وسنسيون . أما الشاعر لوكان والقنصل فستينوس
فقد قطعت أيديهما وأرجلهما وترك الدم ينزف الى أن ماتا . وقتلت بوبيا
وهى حامل بلسكرة من قدم . وقتل سيلاوس . وانتحر أنزيوس .
وبيت اوستوريوس بيده الخنجر في صدره نفسه وأغرق سيريالوس وكريسينوس
وميل . ومات تراشيان وبثرونيه في الحمام والشرابين مقطوعة تندفق منها
الدماء . وأعدم انطونيوس . وكذلك بولس وصاب بطرس . وأغمد كويولون
سيفه في أعماق ذاته . ومات الأخان سكريبونوس مما . وقتل كريبوس . وفي

النهاية جاء دور نيرون نفسه . فقد خاف انه يهلك . ولما فقد شجاعته أمام الموت
سأل بعضهم أن يقتل نفسه كي يتشجع ويقدم على الانتحار وهو الذي رأى
على أعينه كيف نفذت أحكام الإعدام التي أصدرها . ثم قضى الأمر وبیت
الخنجر في صدره بمحاوطة ممنوعة « ايما فروديت »

نقد كان نيرون جديراً بموته أبشع من هذا الانتحار الذي أرغم عليه . انه
كان خليقاً بأن يقاسى العذاب والعار الذي قضى به عليه مجلس شيوخ خليفته
« الامبراطور » جليا »

ولكن موته جاءت عنوان حياته . فقد قضى كما عاش . مجرداً من الشجاعة
ومن الإرادة . بيد ان من الواجب أن نقر بان نيرون كان في كل ذلك خاضعاً
لسلطان خارجي دون سلطان نفسه إلا أن هذا لا يفتقص من بشاعة أعماله
إن نيرون . هذا الحاكم المستبد المطلق . لم يعمل بإرادته إلا نادراً . فقد كان
خادم مطامع الجريح وشهوات الجميع . وليس هو الذي أنشأ القاعدة القائلة « القتل
هو الحكم » ولكنه طبق هذه القاعدة دائماً أبداً في خش لا يعرف للضمير
وخزاً ولا تأنيباً ، وماذا بهم والضعف أخش الاغلاط التي يرتكبها زعيم
أو ملك . فسواء ارتكب نيرون جرائمه لحساب نفسه أو بتأثير أساتذته ومستشاريه
فلما ارتكبت باسمه وهو المسئول عنها أمام الخلف المنتقم

هكذا قال « هنري هوسيه » في كتابه « أثينا وروما وباريس » عن
نيرون (ص ٢٠٧ وما بعدها) وهذا أقل ما يجب أن يقال في سنده . مادامنا لنجد
في كل صحيفة من صحف تدرجته دم أفراد أو نثن أفراد . وانما نجد دم أمة أراقه .
وحياة أمة أزهاقها . ونثن أمة ملأ الأجواء . وأفسد الهواء . وقد كان أقدر
الأناس على اجتناب العمل على كل ذلك منذ الساعة الأولى لظلمته

أقد أخذ سعد من عمدة . وتربى في وسط الكتاب ووسط القرية خلال
 مهدي سعيد وسماعيل . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره اندمج في وسط
 الأزهر . ومهما كانت مقدرة الشيخ المهدي العباسي . ومهما كان سلطان الشيخ
 أبو النعما الشراقوي . ومهما كان منبر الشيخ محمد عبده . فانهم جميعاً ما كانوا
 يستطيعون أن يغيروا غرائزهم . واقدوقفوا أمامها عاجزين سجينيك
 الفيلسوف عن تغيير غرائز نيرون فهذا شب حلافا يقص الأوردة والشرابين
 وينزع الأرواح . ويجز الرقاب . ويعلن أن القتل هو الحكم حتى انتهى به الأمر
 إلى أن رقص رقصة المذبوح . وذلك شب عمدة وفقى . يجارب سيف ذي
 حدين يقبض على سنه فيدهي يده ولا يصيب غريمه . يفتي الفتوة بهر جاويزفا .
 ويلبس الحق بالباطل تضليلاً وخباية . ويترجم عمله عن أن الحكم هو التخريب
 والهدم . والسيادة هي استغلال النفوذ والقاء المعارضين تحت الزدحم . حتى
 انتهى أمره إلى أن أصبح وجوده هو اوباطلا . وأمسى الزعيم كذب باعاطلا ومعتلا
 يجراً البعض على أن يمشى إلى الناشئة على غير استحياء . ويسمى اليهم على خفس
 لاليقنهمهم وأنما ليخدعهم بأن سعدا كان نخر مصر في ناشئته الاولى . وفي عهد
 كرومر . وفي أيام مصطفى كامل . وقبل الحرب . وإبان الحرب وبعدها . كبرت كلمة
 تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . فما كان سعد في ناشئته الاولى إلا
 سهما رشقه العربيون في قواد مصر . وما كان بعد ذلك إلا شتوما على مصر .
 رأيه منكود . وفكره مردود . وحجته على هامة مصر كالسيف . وبرهانه على
 الامة حيف . كان للاحتلال نصيراً . وبأعلان الحماية ناصحاً ومشيراً . ولاستقلال
 مصر نكيراً . ولحريةها ساحقاً . ولسكرامتها ماحقاً . وإذا كان قد قضى في
 القضاء دهرأ طويلاً بعيداً عن أن يظهر في ثوبه الخلق . وعادات النفاق والملق .

فلأن للقضاء كراً خاصاً. لارقابة فيه إلا المذات على الذات . وإلا للضمير على الضمير .

إن سمدالم يقتل شيوخاً ولا نواباً . ولم يره أصدقاءه ولا أحباباً . ولم يعدم أنصاراً ولا أعداء . ولم يكن ثلاثة آلاف مصري بلفافات من الدهن ليضئ بهم مسرحه . أو يستصبح بهم في ليله حتى يزداد سروره ومرحه . ذلك بأنه كان أجنبى من نيرون . ومن كان أجنبى من نيرون يستحق من أن يقتل الناس فرادى بالسلاح ويستحق من أن يقابل عدوه بالاتفاق مع أرلندا والهنود والكاليين . وانما وسمه أن يقتل أمة بالورود ورياحين وبالنفود دون السكين . فقد نثر الورود على الأمة حتى خنقها . وكفها بلفافات من ورق البنكنوت الذى تبرعت به في سبيل انقاذها . وأضرم النار فيها لتضيء السبيل أمام الانجليز . ويحتاج كل عقبة في سبيلهم حتى تهتدى خطاهم الى تحقيق آمالهم . وتسرع في تنفيذ مشيئتهم .

ولكن سمداً إذا امتاز على نيرون بأنه خنق أمة بسحر ضلالة . وإذا اختلف عنه بنهومة وسائل وحشية . وإذا طاقه في حبه وفقدان شجاعته وانعدام ارادته . فقد اجتمع معه في أنه كان متأثراً بسلطان غير سلطانه . وضمير غير ضميره . وارادة غير ارادته .

لقد دفعه صهره مصطفى فهمى وهو على رأس لجنة تأسيس الجامعة الى أن يتركها حتى تهدم فتحة ليكون وزيراً ودفعه دنلوب الى مطاردة العلم حتى يستحق . وإلى مازلة اللغة العربية حتى تحقق وبذلك حال دون انتشار العلم وحصر المتعلمين في دائرة ضيقة يمكن إغواءهم بالوظائف واضرام هرة المطامع في صدورهم مع أن أمة محتلة يجب أن يخرج شبابها ورجالها جميعاً على وجودهم حتى يكون لهم وجود وكيان . ثم استفزه رشدى وعدلى فيما بعد ليكون زعيماً .

واقتراده الانجليزى النهاية ما كما بأمره.

لقد خلق سعد زهيا بالهدم . خطم المهنوى بكافة فروعها . فى أيامه بدأ تعاقب الارادات حتى سقطت : تهدم الخلق حتى اتهدم . وتراخت الغيرة حتى أنهدمت . وباء الاستقلال بالخسران حتى أمسى هباء . وقد بدأ وزارته فى الحقانية بهدم الحرية عندما أيد تنفيذ قانون المطبوعات سنة ١٩٠٩ فى شدقة وقسوة . ووضع قوانين الاتفاقات الجنائية فى سنة ١٩١٠ الخ وفى عهد زمامته احتفل بدفن الحرية تحت ستر حرية المظاهرات . وبدفن الضمير بـسط الرقابة على القضاء . فهو المسئول عن كل ذلك أولا وأخيراً أمام الخلف المنتقم . فهل يصح لنا أن نقول بعدئذ أن سعداً كان الرجل السياسى والوطنى ؟

ماذا كان سعد ؟

لا يمكننا أن نمثل سعداً إلا بهيروسترات . فسكلاهما جن بالشهرة دون العظمة فنذ ٢٢٩٥ سنة ارتكب هيروسترات جريمة من أفظع الجرائم هى أضرام النار عمداً فى معبد « ديانا » الالهة اليونانية بأيفيز . فمن كان هيروسترات ؟ ولم أضرم النار فى هذا المعبد الا ترى العظيم ؟

يقول المؤرخ وفاق روح الاسطورة أن هيروسترات كان عبداً أو اجيراً أو ممتزقاً أو رجلاً فامضاً خامل الذكرك . نهش نفسه التمتعش القاسى للشهوة ولملا أعينه الحيلة ولم يستظم أن يكشف عن وجوده ما اسدل عليه من حجب الظلام وضمأ من كده وجهوده المتواصلة . أخذ يتطور من رغبة إلى رغبة . ومن أمل إلى أمل . ثم من خيبه إلى خيبة . ومن يأس إلى يأس حتى استولى عليه جنون الكبرياء وذهول الثورة فى سبيل تحقيق المعظم

لقد وقف هيروسترات إلى جانب المعبد وأخذ يناجى نفسه : ويبتلى

شكواه . ويذكر آلامه . ويثير آماله الخائبة . وأمانيه الفشيلة . ويخون مطامعه الخافدة . ثم أنشأ يفكر في أى عمل . وأى منهج . وأى مسلك . وأى جنون يمكنه من تحقيق مطامعه وإحجاز شهوته . وإذاعه شهرته . وبينما هو كذلك استوفقت أنظاره عظمة المعبد وأطاشته روعته . ثم استغواه الشيطان وصاح وأزمه الكلب ترعى عقله كالمألوق : « لاربطن الهى بحريق معبد ديانا » . وقد كان ذلك والناس يتفرغون مع الكهنة بمدح هذه المعبودة . ويرتلون آيات عظمتها ومجدها وإحسانها .

ولما جاء الليل وخرج الناس من المعبد يفسلون . كشف هيرو سترات عن خبيثته نفسه . وانزلق تحت جناح الظلام إلى بيت التقوى والاه لاح يعبث ويبدد المشعل . وسرطان ماغشى الدخان المعبد . وزجرت عواصف النيران . وأخذت ألسنتها تعبت في كل مكان . فكان كل شئ طعاما بشمالها . وتداعت العمدة وخرت . وتساقطت السقوف فوق أنقاض الحوائط . ونمت الجريمة . ولم يبق داخل المعبد غير الذكري . ولم يظهر من الخارج غير أكوام وأطلال من الركام . ووقعت أجواق القسوس في يأس وحزن ترنل أناشيد اللعنة وهى تبكي المعبد . وطقق المتعبدون يكون لله أمر الانتقام من المجرم على فعلته الشنعاء .

ولكن انبوليس التى القبض على المجرم دون أن يعالج فراراً

لقد قام مهمته . وماذا مهمه من الحياة . وقد أصبح خالداً .

وعندئذ اجتمع مجلس الولايات الايونيونية . وعذب هيرو سترات حتى

يفصح من بواعث إثمه

فأجاب هيرو سترات في كبرياء وعجرفة . انه اقترف جنايته حتى يبقى أبداً الدهر ذائع الصيت والشهرة فحكم بالاعدام على المجرم الانيم . وقبل التنفيذ تلى عليه المرسوم الذى أصدره البرلمان (الدييت) قاضياً بحكم الاعدام على من

يذكر اسم هيروسترات اللعين أو يشير إليه . فبم أجاب على منطوق قضائه .
وأي نشيد أعلن به فاحش خلوده ؟

لقد حكم بالاعدام على المجرم ولكنه لم يندم . بل فاحش بجرمه القطيع .
وياهي بآله الشنيع . ونوسم أمام قضائه ان الزمن سيضرب حكمهم بصيف البطلان .
وجعل يقول : « لقد انطيم اسمي الآن بحروف من نار على خرابات معبد ديانا .
وستمضي القرون الطويلة وايفيز الجيلة قاعصف صفا . وساحلا بلقمامه جوراً آمنبوذاً
ودياناتهم على وجهها في كل مكان خارج معبدها . وسأكون خلال هذا الزمن
ذلك الشهير الذي ارتقم اسمه فوق الاسماء وارتسم بحروف من نار في كبد
السما لينيير الاكوان والاجواء . وستبقى ذكرى هيروسترات طالما بقيت ذكرى
معبد « ايفيز » و ذكرى « الآلهة ديانا » و ذكرى أرض الاغريق القديمة

وهكذا كانت حال سمند . فالمرح وائق كل الثقة بأنه لم يكن إلا
ابن عمدة تولى العمدة في عهد الاستبداد . ثم نخرج من الازهر أيام
المخطاطه العلمى فهو اذن نشأ فامضيا خامل الذكر . ولكن الحداثة من الشيخ
ابراهيم زغلول قد جعل فيه نوما من الطموح الوحشى تكبح جماح قسوة الجبن
الذى أثقل ماضيه . وقد أضرم نار هذا الطموح الكسير الحزين اختلاطه
بالعرايين الذين لم يعرفوا الثورة للفكرة وانما للوظيفة والمنصب فنش هذه
للنفس الجبارة الخوارة تعاش للشهرة فاسق متشرد هربيد هدام فلم يستطع سمند
أن يرفع عن وجوده ما أنسد عليه من سجوف سوداء غمما من كده وجهوده
المتواصلة . وعندئذ أخذ يتطاور من رغبة تتحقق ثم تخيب . ومن أمل يستطع
ثم يزور ويهيب ولما جاء دور الجمجمة التشريعية بعد ما يشبه الاقالة من الوزارة .
طلق يتنقل من خيمة إلى خيمة ومن يأس إلى يأس إلى أن دفعه عدلى ورشدى
إلى قيادة الثورة وهو غير أهل لها وماجز بحكم الزمن وعلمه ونجار يبه عن ادارتها

فأجاء جنون الكبرياء والعظمة وذهول الاهتياج في سبيل تحقيق المقصود .
 لقد وقف سعد إلى جانب مصر وجهل يناجى نفسه وبنها شكواها .
 ويشير ذكرياتها بانها . ويردد آلامها ومناها . فيحرك الشجن خواطر أيام
 المحن . ويؤجج الحزن نيران الاحن . فتخبو مطامعه الحائقة ونحوه . وتعلو
 السكابة وجهه . والغضب تنفجر من عينيه . وهو في بحر الجنى من التفكير والتدبير .
 التفكير في العمل . والتدبير في سبيل المسلك المؤدى الى تحقيق الغاية والمقصد .
 وما هو إلا أن أصيب بجنون ظن انه أسهل وسيلة إلى إدراك الامل . واجتناب
 القفل . واذاغة الصيت . وكعب الشهرة .

لقد استوقف نظره الجمع الحاشد من حوله . فخالهم رجالا يشدون أزر حوله
 وطوله . وطلق يسخرهم حتى حالهم على أن يتقايؤ واقعهم ليرضوه ويستقرغوا
 كرامتهم ليرفعوه . ويبذلوا حياتهم لينقذوه . وخلق لهم من نفسه صنما
 محبوباً . ومنهم أدوات وجنوداً . يسخرهم في لهوه ولعبه . ويستعين بهم على
 إرضاء حقته وغضبه . ولكنه تصور مع هذا الخضوع . وتوهم مع هذه اللذة
 والخنوع . انه لا يأمن شر هذا الجند المستضعف إلا أن ينساليهم على غرة
 فيقلبهم . ويصارعهم غلة فيصرعهم . وكاننا به وقد صاح « فلتست مصر ولاعش
 أنا » وهذه أعماله ناطقة كلها بهذه البديهة

وبينما أغلبية الناس يترغنون مع الكهان بمديح هذا المعبود . ويرتلون
 أناشيد عظمتهم وعجده واحسانه وبينما انجلترا تطلق دخان سياستها حجباً لتسدل
 على الحق . وبينما رجاله بهجمون من شدة الاعياء ترتب على مجاهدته النفس
 في اقامة شعائر الولاء وفروض الطاعة لسعداً . وإذا به يخرج ويده الممباح
 الخفاف ليصب الزيت منه على أجساد أمته وكأنه يباركهم . ولكن لم يمض
 زمن يسير حتى غشى الدخان سماء مصر . وزججرت عواصف النيران وأكلت

السنتها كل مكان . فنداعت العمى . وانقضت على النفس وتساقطت السقوف .
على الانسان والحيوان . وراح كل شيء طعمه بشعة الهول وتمت الجريمة ولم
يبقى داخل مصر غير الذكرى . ذكرى الاطهار طالبا بالاستقلال واجلاء الاحتلال .
ولقد خط سعد على وجهه من قبر مصر العام . « هنا نقيم أمة كانت حية
في سابق الأزمان » وعلى وجه آخر « أبد الامة التي تثق بك تسد وتحكم »
وعلى ثالث « اجعل من أصهارك جلادين . ومن أنصارك سجانين . ومن
معارضيك شهداء » . وترك الرابع خالبا ليطر عليه « وهنا دفن حلال أمة » .
وأما من الخارج فقد انهدم الزخرف وضاعت أسس السيادة . وهاهنا
اليوم أجواق الكهان في يأس وحزن . ترتل أناشيد اللعنة وهي تبكي مصر .
وهاهم عباد الله يملكون أمر الانتقام الى الله .

ولقد وقف سعد جامداً في مكانه . لا يعالج فرارا خلال سنوات انقضت .
بعد اشهار افلاسه الادبي . ولقد وقف هذا الموقف بعد أن أدى مهمته .
وأصبح لاهمه من الحياة شيئاً . لانه أدرك الخلود وقرن اسمه بحريق مصر .
وهل من حريق أشد هولاً من أن يسلم لانه لا يجترأ في الوطن عندما تحدث مع ونجت
في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وعند ما فاض ملأ في سنة ١٩٢٠ . وعند ما رضى بتحرير
٢٨ فبراير نهائياً عقب تحالف الاحزاب في سنة ١٩٢٦ واعلان سياسة الوفاق التي
قررت اعتماد تصرفات الحماية باقرار قوانين الحماية وقوانين التضمينات . والتعويضات
والاجتماعات والمظاهرات . ووضع جميع المشروعات القومية في سلة المهملات
وبعث العمل بتلغراف جرنفل عند ما خضع وارضى وهو زعيم الاغلبية أن
يعين عدلى وثروت رئيسين للحكومة بالتناوب . وعند ما أعلن في غير خجل أنه
يريد حكومة زغلولية معنى ولما ودما وروحا . ليهدم التقاليد ويسحق
الكفاءات ويدهور الاخلاق ويربى الفساد ويعود للباشيين على الاجترار
على تفويض الجنسية وإقامة الشخصية الذاتية مقامها وما الى ذلك مما يمكن

الاستشهاد به على صحة تدعيم الحماية على يد سمد مما سيجي تفصيلا ونصاً؟
 لم يستطع مصري أن يمدب سمداً كي ينتزع منه أسرار بواضته على
 ارتكاباته . ثم شراء الناقة وفي رقبتها ذلك الخداء الملعون يعلى من قدرها
 ويسمو شتمها حتى يجعله عدل ثمن وادى النيل .
 ان سمد لم يكره على الاعتراف وانما اعترف في كبرياء وصالف وعجرفة بأنه اقترفه .
 جنايته ليبقى أمد الدهر ذائع الصيت والشهرة . يدوي ذكره في جميع الأنحاء
 ويعلموا اسمه كل الاسماء

وليس لك في سبيل التحقق من ذلك إلا أن تختبر مواقفه ونسجم «الطماطيق»
 التي بررها هذه المواقف وتري تسليمه الخزي المريب كقول له امن علامات اذن
 الله بالنجاح ان تولينا الوزارة في الوقت الذي تولى فيه حزب العمال مقاليد
 الحكم في إنجلترا وهل عندكم تحريرة دلوني على السبيل . والاستنكار شيء .
 والتنفيذ شيء آخر . والانجليز خصوم شرفاء معقولون . ولانجلترا في مصر
 مصالح لا تتعارض مع الاستقلال الخ . فهل كل ذلك لا يحمل على الاعتقاد بان
 الثعلب كان دائماً يحاول ارتداء جلد الاسد ليسود ويحكم ويعمل للشهرة والخلود .
 ما اشتهرت انجلترا بضم وادى النيل على يديه . وخلد التاريخ بقاءها فيه .
 أو بمفاوضات تقر الامر الواقع وليس لاخطارها من دافع ؟

غير أن هناك فارقا بين هير وسترات وبين سمد . هذا الفارق هو أن نواب
 الولايات الايونيونية قد أصدروا حكمهم على الاثيم . أما سمد فقد أفلت .
 ولكن لاعصمة له من قصاص الله . وقضاء الاجيال المقبلة ولا يمكن أن تكون
 قوة إنجلترا سبباً في عذرة فقد كانت سياسة مصطنعي كامل خير قدوة له
 على أننا نرى من الواجب أن نبحث فيما إذا كان هناك عامل آخر قد دفعه إلى
 هذا التدهور . فإذا وجد وجب أن نتحرى هل هو من الظروف المخففة أم من
 الظروف المشددة أم من تلك الممانعة من العقاب ؟

لقد كان سعد متشككا بدافع الوراثة إلى حد بعيد . لأن العمدة يريد دائماً أن يرضى كل فرد أو يظهر بمظهر من أيريد إرضاء كل فرد . ثم هو في الوقت ذاته يرمي كل شيء . أو يظهر بمظهر من يرضى كل شيء فيؤول أمره إلى تمرد ذلك حتى يصير الأمر مادة تتحول إلى غريزة تنقل بالوراثة ولقد كان وسط العرابيين ووسط الأزهر ومدارج رقي سعد كالطمي اكتسب تشكك سعد الوراثي خصبا ونماء وقوة . فهل كان سعد مسؤولا عن عمله أم غير مسئول؟ وإذا لم يكن فن المسئول؟

سعد في نظر أنصاره

يرى المعتدلون من أنصار سعد أنه رجل الذكاء والارادة والفكرة . وأما المتطرفون فاتهم لا يتورعون عن أن يخلموا عليه القاب النبوة . والربوبية . فهو أما أبو الخربة أو أبو الاستقلال أو المنقذ . وأما أنه مريء المقعد والمريض . ولقد اشتد هذان الحجتى على البعض فحمل بقول « الشرك بالله ولا تكفر بسعد » وإذا نحن أثبتنا أن المعتدلين لم يسيبوا كند الحقيقة أنهمار ادعاء المتطرفين . عن تلقاء نفسه ؛ وبعبارة أوضح إن سعدا إذا لم يكن زعيما بالمعنى الصحيح نزول عنه صفة النبوة ويسقط عنه وصف التأليه . لو أن المعتدلين من السعديين لم يجهلوا علم النفس جهلا تاما فكفوا عن الاشارة بذكاء سعد وإرادة سعد وفكرة سعد .

فالدكاء إذا تخطى حدوده الطبيعية بموجب قانون الوراثة وحدود الاكتساب بموجب قانون الوسط . جعل شملته تلتهم كل شيء . وافضى بحكم قانون المقاصة بين المواهب إلى اعدام كثير من المواهب أو أدى بحكم المشاهدات والتجارب الطبية الى الارتباك والتردد والتشكك والشقاء وأما من ناحية

الأرادة فنشهد بين يدي الله أن إرادة سمع كانت حديدية . ولكنها إرادة لم نستخدم إلا في ميدان السوء . هذا إلى أن الإرادة لا تدخل لها في تكوين العقيدة . لأن مهمتها علمياً قاصرة على الاحتفاظ بالعقيدة بعد تكوينها وسنمين ذلك تفصيلاً عند الكلام عن مهمة الإرادة . وتكوين العقيدة

وأما أن سمعاً كان رجل الفكرة فقول مردود . لأن الفكرة علمياً هي أفراز المخ . ولا يمكن أن يكون التبدل على عكس ذلك بتطبيق نظرية السالك التلفوني . لأن هذا السالك موصل للصوت لا مولد له . فإذا كان المركز المصبي حيث تقيم الفكرة قد نهدم . فلا مناص من انعدام افراز الفكرة . أي أنه إذا مات مخاطبك كف سالك التلفون عن نقل صوته إليك وكذلك إذا فسد مخ الإنسان .

أنت المخ غدة تؤدي وظائف عديدة مختلفة . كالكبدة والكلى الخ . وافرازات هذه الغدة تختلف كافرازات الغدد الأخرى تبعاً لأنواع الحيوان واليك برهان نستخلصه مما نسميه الغريزة .

غدة مصفوراً ساعة فقده . وربه بهيماً من أي مصفور . ثم تعال بعد أن يشب ويكبر لترى هذا المصفور يصنع عشه على وتيرة اسلافه المصافير . فمن علمه ذلك ؟ أن الذي علمه ذلك هو بلا شك مخ الذي يفرز الفكرة كما يفرز الكبدة مرارته كما يؤدي كل عضو من أعضاء الجسم الإنساني وظيفته وفقاً لقانون الوراثة وهل لحلم ليس دليلاً على افراز المخ للفكرة ؟ إن غدة ما يجب أن تفرز بلا انقطاع وأذن فالنوم لا يؤدي إلى توقف هذا الافراز . والغدة التي تفرز كثيراً أو قليلاً أو في غير كفاية هي غدة مريضة . وهل لا يكون المخ مريضاً طبياً عند ما يكون افرازه زائداً عن المألوف أو عند انعدام الافراز فيقول عن ذلك الجنون والانجذاب والبله والعتة ؟ لقد كان ذكاء سمع مقرطاً وكان تولد أفكاره زائداً عن الحد الطبيعي فتضاربت وتباينت في غير حساب

لم يمتدح سعد في حياته بأنه مصاب بالبله أو العته أو الخنوب . ولكنه اعترف رسمياً أنه رجل لا رأى له ولا عقيدة . متردد متشكك تكلفه الوظيفة . وذلك في محضر الجمعية التثريبية الرقم ٩٦ يونه سنة ١٩١٤ حيث قال « أنى كنت قاضياً . وكنت وزيراً . والآنى أنا عضو بينكم . وأحس من نفسى أن شعورى كان يختلف باختلاف مركزى . وكان لى فى كل مركز شعور خاص ومع ذلك كنت حسن النية فى كل المراكز التى شغلتها كما ينطق بفسم الآن سعادة الوزير بحسن النية ويقول أنه يعدل بينكم إذا فصل فى أمركم ولا يجيد عن الحق قيد شعرة . كنت كما قلت لكم فى كل مركز لى رأى . ولكن هذا تأثيراً توسط

« اخوانى ! عملت وأنا وزير عملاً لو عرض على الآن لكنت أول المنتقدين عليه والمعارضين فيه بكل قواى . عملت لظروف بررتها و ذلك الوقت أمام نفسى كما يبرر اخوانى أعمالهم الآن . وكنت حسن النية كما أنهم حسنو النية ولكن لو عرض على مثل هذا الامر الآن . أراه خطأ جداً وأنا لم له غاية الا لم أماننا مثل وهو قانون المطبوعات فأنى كنت معارضا أولافيه وفى اصداره ثم اشتركت بعد ذلك فى اصداره . ثم ندمت على هذا الاشتراك . ولكنى وقتما اشتركت فى اصداره كنت مقتنعاً بأنى لاحظت ظروفًا يجب على ملاحظتها وشاهدت بعضى تطبيق هذا القانون . واشتركت أيضاً فى تطبيقه . هذا الاشتراك فى مجلس النظار هو الذى يخيفنى من أحكامه بصفة كونه محكمة » قال سعد هذا القول دون أن يعاب بالحكمة الخائفة التى القاها مصطفى كامل بقوله « لو انتقل قوادى من الشمال إلى اليمن أو تحولت الاهرام من مكانها المسكين لما تغير لى جبداً ولا تحول لى اعتقاد »

فسعد بهذا التصريح قد أقر بأنه كان فى جميع أدوار حياته رجلاً حاراً متردداً متشككاً فى النهاية . فها هو التشكك وما هو أثره ونتائجه ومداه وعلاجه ؟ هذا موضوع الجزء الثانى من « النماحة » مع تطبيقه على سعد .

تصحیح

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
ليذر	ليندر	٣	٤
يميز	تميز	٤	٤
آوة	آوة	٢٠	٥
المداء	المداة	٢١	٥
المهضومين	المهضومين	٦	٧
الغاوين	الغاوين	٢٠	٧
وبخنفون	وبخنفون	١٦	٨
فترة	فترة	١٠	١٠
على القلوب	على القلوب	٧	١١
المعارك	المعارك	١٤	١٤
اذ	اذا	٨	١٥
١٩٣٤	١٩٣٥	١٣	١٦
أو أخطأنا	أو أخطأنا	١٥	٢٤
وخداعة	وخداعة	٧	٣٠
بذغ	بذغ	٩	٣٦
جميع	جميع	٢	٣٧
أم قواعد	أو قواعد	٢١	٤٦
أصلب هوداً	أصلب هود	١٨	٤٩
الوراثية	الوراثية	٤	٦٨
الاشترك	الاشترك	١٩	٧٣

فهرست الجزء الاول

من الناحية

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
٥٠	بعد الثورة العراقية	٣	الاهداء
٥٣	هل هناك عناصر أخرى	٥	مناسبة الاصدار
٥٣	غيرت غرائز سعد	١٣	سبب الاصدار
٥٣	قبيل نهاية الثورة	١٧	حملة اليوم
٥٥	بالغة الخطبة	٢٥	قانون الوراثة وأثره في سعد
٥٧	هل كانت هناك ديمقراطية؟	٢٥	تعريف قانون الوراثة
٥٨	في مجلس النواب	٢٦	من أحد رسد؟
٥٩	الموقف العلمي والسياسي	٢٨	كيف نحكم على سعد؟
٦١	الصحافة والمسرح	٣١	النتائج النفسية لقانون التوارث
٦٢	الموقف الفكري وتحولاته	٣٥	أبناء الثورة الفرنسية
٦٣	الفنون	٣٩	مواهب الملاحظة
٦٣	الانتاج العلمي	٣٩	العواطف
٦٥	ما هو الرأي العام؟	٤١	في الذكاء
٦٦	هل كان سعد رجلاً سياسياً	٤٢	العادات والذاكرة
٦٧	رجال الثورات الفشلة	٤٢	قانون الابدسة
٧١	تحالف الاحزاب	٤٣	قانون البيئة وأثره
٧٤	تغلب الطبيعة على الوسط	٤٣	في التوارث الخاص
٧٤	تيمير	٤٥	في الكتاب
٧٩	نيرون	٤٦	في الازهر
٨٦	ماذا كان سعد؟	٤٧	سعد بعد تخرجه من الازهر
٩٢	سعد في نظر أنصاره	٤٩	مع المرابين

